جمال المرأة في الإسلام

تأليف
محمد كامل حسن المحامي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

جمال المرأة في الإسلام

٢١٠,٤

م م ج

محمد كامل حسن المحامي

جمال المرأة في الإسلام

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

يلعب الجمال دوراً كبيراً في حياة الإنسان ويكاد الإنسان يكون الوحيد بين كافة المخلوقات الحية على ظهر الأرض الذي منحه الله تعالى القدرة على الإحساس بالجمال واستيعابه والاستمتاع به. .

إن الحيواناتِ والطيور لا تكاد تشعر بأي معنى من معاني الجمال ، سواءٌ في ذلك جمال الطبيعة التي تحيط بها ، أو جمال الأنوثة .

والمقصود بتعبير « جمال الأنوثة » : جمال أُنثى الحيوان أو الطير ، وهو ما نُعَبِّر عنه بجمال المرأة .

إن ذكور الحيوانات أو ذكور الطير لا تبالي بجمال الإناث ، فالمهمّ في الأمر أن تكونَ الأنثى صالحةً للإخصاب . ولا تكون أنثى الحيوان أو الطير صالحةً للإخصاب إلا في مواسم معينة من السنة .

ولعلّ إحساسَ الإنسان بالجمال هو الذي يثير الرجل ويجعله راغباً في إقامة علاقات مع امرأته سواء أكانت مهيأةً للإخصاب أو غير مهيأة له. والمعروف أن أنثى الحيوان إذا ما حملت منعت الذكر من الاقتراب منها .

وطبيعة هذا الإحساس تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد تكون المرأة جميلة جداً في نظر أحد الرجال ؛ بينما تكون عادية الجمال أو أقل من العادية في نظر رجل آخر .

لذلك قيل إنه من الصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن نضع قواعد أساسيةً للجمال أو أن نرسم له شروطاً معينة يجب أن تنطبق على كل امرأة لكي نطلق عليها لفظة : « جميلة » .

وهذا القول بطبيعة الحال ينصبُّ على الشروط أو الصفات الجسدية . . سواء في ذلك جمال الوجه أو جمال الجسم وتناسق أعضائه .

لقد تغنَّى العرب مثلاً بعيني المرأة فشبهوها بعيني المها من حيث الاتساع والاحورار ، ولكن مثل هاتين العينين قد تلائمان أحد الوجوه ولا تلائمان الوجه الآخر .

وكذلك الحال فيما يتعلّق بصِغَر الفم أو برقّة الشفتين أو بكونهما ممتلئتين ، وامتلاء الوجنتين أو نحولهما وما سوى ذلك من أمور أخرى .

ولكننا إذا قلنا إن وضعَ مقاييس ثابتة لجمال الوجه أو جمال الجسم أمرٌ متعذّر فما لا شك فيه أن هناك مقاييس معنوية وروحية يمكن الاتفاق عليها والتسليم بها .

والمقصود بالمقاييس الروحية والمعنوية تلك الصفات والسجايا الحميدة التي يجب أن تتوافر في كلٍّ من الرجل والمرأة ، مثل الصدق والإخلاص والقناعة وعمق الإيمان بالله سبحانه وتعالى والصفح الجميل وتجنّب العناد الذي لا موجب له ، والعفّة التي تحتّم الاستمساك بمبادىء الشرف وتصرف صاحبها عن التفكير في الخيانة وتدنيس نفسه بأدرانها ؛ وما إلى ذلك من صفاتٍ معنوية أخرى لا علاقة لها إطلاقاً بالمقاييس الجسدية المتعارف عليها للجمال ، والتي نتوخّاها عند الحكم على جمال الوجه أو جمال الجسد ، تلك المقاييس التي ـ كما ذكرنا ـ قد تختلف اختلافاً كبيراً من شخصٍ إلى آخر .

إلا أن السجايا المعنوية والخُلقية المستحبة لا يكاد يختلف عليها اثنان .

إن المرأة الصادقة التي تحتقر الكذب ولا تجنح إليه أبداً تكون أجدر باحترام الرجل وتقديره وإعجابه من المرأة الكاذبة أو المرأة التي يعلم الرجل أنه لا مانع عندها من الكذب المتقن إذا أرادت أن تحقق مصلحة ذاتية أو تخفي أمراً معيناً .

والمرأة التي تكون مع زوجها سلِسةَ القياد مطيعةً تكون ذات حظوة عظمى لديه ، على عكس المرأة المشاكسة العنيدة المحبة للسيطرة .

ومن ناحية أخرى نجد أن داء الأنانية البغيض إذا أنشب أظفاره في امرأةٍ أو في رجلٍ فإنه يطمس ما في كل منهما من جمال الوجه أو الجسد .

ومما لا شك فيه أن استمتاع الإنسان بالجمال هو مزيج من الاستمتاع الحسّي والروحيّ معاً ، فإذا انعدمت الصفات المعنوية أو الروحية السامية أو تضاءلت ، أصبحت متعة الرجل أو المرأة بالجمال متعةً جسدية فحسب ! ومعنى ذلك أنه يهبط بنفسه إلى درك الحيوانات ، ويصبح عبداً لما يسمّونه « بالغريزة الحيوانية ». وهو ما كان يسميه بعض فلاسفة العرب « بالنفس البهيمية » .

والدين الإسلامي الحنيف راعى كل هذه الأمور فيما يتعلّق بالجمال بوجه عام ، وجمال المرأة بوجه خاص .

ونحن في هذه الدراسة عن « جمال المرأة في الإسلام ». نعتمد في بحثنا على ما ورد في هذا الشأن بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال بعض حكماء العرب وفقهائهم .

المؤلف

الفصل الأول

تعريف الجمال

ما هو الجمال ؟

عندما تخرج صباحاً من دارك ، في قريتك ، أو مكان اصطيافك أو منتجعك ، تخرج كي تتريض قليلاً في حضن الطبيعة التي وهبنا إياها خالقنا ، البارىء ، المتعال ، تقف وقفة المشدوه ، المعجب بما يرى فهنالك في البعيد تقف الجبال شامخة وقد اكتست ثوباً من الخضرة لا مثيل له حتى لكأنه بساط أخضر ممتد إلى كل الارجاء يغطيها ويثير في النفس مشاعر الارتياح .

وإذا عاد نظرك إليك من البعيد رأيت الاشجار متناثرة حولك مزهوة بازهارها وثمارها التي طابت للآكلين ، وإذا بالعصافير تطير مرفرفة من غصن إلى آخر مزقزقة بأصوات عذبة تتجاوز اسماعك إلى مشاعرك واحاسيسك فتحس بالنشوة تمتلك جوارحك .

ويهب النسيم العليل فيداعب وجنتيك ويثير فيك شعوراً بالارتياح والطمأنينة . فيأخذ الإعجاب بمجامع قلبك فلا تتردد عن السير خطوات تطول أو تقصر فإذا بك عند ضفاف جدول يسير رقراقاً متمهلاً بين الصخور وخرير مياهه العذب يترافق مع النسمات الرطبة التي تنعش جوارحك .

وتتطلع إلى أغصان الاشجار حولك فتمتد يدك وقد أثار الرغبة في الأكل في نفسك منظر الفواكه على أشجارها وقد نضجت وحان قطافها ، وتذوقها فإذا الطعم ولا أحلى وإذا النكهة ولا أشهى .

تقف أمام هذا كله حامداً شاكراً مسبحاً الخالق على بديع ما صنع وكمال ما خلق وجمال ما أبدع .

وحتى لو كنت تعيش في صحراء لا متناهية تمتد أبعد من مدى رؤياك فإن إحساساً بالرهبة وارتياحاً إلى السكون من حولك يجتاح نفسك .

فإذا تطلعت إلى السماء من فوقك وجدتها زرقاء صافية لا تشوب زرقتها شائبة ، وإذا سرت قليلاً وجدت وسط هذه الصحراء ، واحة أضفى عليها الخالق من بديع صنعه وسط هذا الجفاف حولها خضرة ونخيلاً وأعناباً ونسيماً عليلاً .

إنك إن نظرت إلى هذا كله . . . تطلعت نحو السماء شاكراً خالقنا رب العالمين على عظيم ما صنع وجميل ما خلق .

وإذا حل الليل ، فبدت النجوم في السماء كأنها مصابيح تنير وتضيء عتمة الارض وترمي بسهام الأمل في القلب الكئيب أو كأنها جواهر تسطع في ثوب قشيب فيثير الفرح وتغري بالسرور والغناء فإنك إن وقفت للحظات متأملاً أمام هذا كله ، صعد الشكر والحمد والتسبيح على كمال صنع الله .

فإذا حاولت أن تحلل كل هذه الأمور تحليلاً علمياً مترابطاً متماسكاً ، متجاوباً مع نزعة العصر العلمية فإنك واجد ، أن الشمس بحرارتها تثير الدفء في الارض ، وبأشعتها تتسبب بعدد من التفاعلات الكيماوية في الانسان والنبات والحيوان تساعده على النضوج والإكتمال وعلى الاستمرار في الحياة وعلى انجاب أجيال جديدة ترث الارض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والقمر، هذا الكوكب ، الذي قال العلماء عنه أنه ميت لا حياة فيه فإن له دوراً في حياتنا على هذه الأرض ، وعلى الأخص في حركة المد والجزر وفي حساب الشهور والأيام والفصول والمواسم .

إن صنع الله كامل متكامل مترابط ، ليتمم أحده الآخر فيجعل منه وحدة متماسكة .

ونحن لا نرى بأعيننا تفاصيل هذه الأشياء بل نراها كوحدة كاملة ، فتثير فينا شعوراً بالارتياح والديمومة والاستمرار ،

وهذا هو الجمال .

إنه التكامل والتناسق والدليل ،

إنك إذا تطلعت في وجه إنسان ما فإنك من النظرة الاولى ستحس بالارتياح أو تحس بالنفور .

قد يكون لهذا الإنسان عينان واسعتان ولكن مع أنف ضخم فانعدام التناسق ها هنا ينسيك جمال التفاصيل.

وقد تتطلع إلى وجه ولا احلى ولكنك لا تحس تجاهه بالارتياح ، بل على العكس من ذلك تحس بالنفور أو الخوف لأن نظراته تحمل معاني الخبث أو الدهاء أو الجشع ،

إذن فالجمال ليس جمال ما ظهر فقط وإنما ما أخفى الإنسان في قلبه أيضاً مشاعر انعكست على صفحة وجهه كما ينعكس الضوء على صفحة المرآة وأشعة الشمس على سطح الماء .

وكذلك قد تعجب بجمال الجبال العالية والوديان السحيقة ولكنها في نفس الوقت تثير فيك شعوراً بالخوف .

حتى النسيم العليل قد يتحول إلى أعاصير عاتية تقتلع كل شيء في طريقها فلا تبقي ولا تذر ، كالريح الصرصر التي أرسلها الله لقوم هود عليه السلام والجدول يصير نهراً ، والنهر قد يثور وتتحول ثورته الى طوفان كما فعل ربك بقوم نوح عليه السلام .

وسط هذا كله يقف الانسان حائراً ، ما هو الجمال .

ومما مر معنا ، نجد أن الجمال ليس ما تراه العين فقط ، فخلف هذا المنظر الجميل قد يكمن مخبر سيء .

والجمال ليس ما نحسه تجاه شيء أو شخص فقط فقد يكون المنظر الاول منفراً .

فما هو إذن الجمال ؟ .

إن علماء الجمال في عصرنا الحديث قد وضعوا شروطاً ومقاييس للجمال البشري والجمال الفني وجمال الطبيعة .

عند الرجال اشترطوا الطول المحدد والعضلات المشدودة القوية والوجه المقبول وسوى ذلك من الشروط . وفي الفن جعلوا تناسق الالوان والظلال وتماسك التراكيب هو أساس الجمال .

فإذا جازوا يضعون مقاييس لجمال المرأة ، وقفوا محتارين ، في البداية وضعوا مقاييس للطول والعرض والوزن ، ومحيط الخصر الخ . . . وأضافوا إلى ذلك الثقافة والعلم والابتسامة الجذابة الخ . . . .

لكننا مع ذلك نجد في كثير من الاحيان أن الفائزة ليست أجمل النساء الموجودات مع رفضنا أصلاً ومبدئياً لكل هذه المسابقات التي تستعرض الانسان كحيوان للبيع أو كسلعة معروضة في مخازن المحلات التجارية وخروج هذه المسابقات من الاخلاق أصلاً ، نجد أن الفائزة ليست أجمل هاته النسوة فلم اختيرت ؟ .

لقد أثارت في نفوس المحكمين إحساساً بالجمال .

إذن فالجمال شيء في داخل الإنسان كأنه تيار كهربائي يسري إلى الآخرين لقد عجز علمهم عن تعريفه وتحديده أما نحن فنقول كلما علمنا

ديننـا إن الجمال هـو جمال الـروح ، وكلما كـانت صافيـة ، دافئة ، مليئـة بالحب لكل الناس ، مليئة بالاحساس بوحدة بني البشـر وخضوعهم جميعـاً لخالقهم عز وجل كلما أضاء الوجه بهذا النور الداخلي فأخذ بمجامع قلوبنا وسلب ألبابنا وجعلنا نصرخ بأعلى صوتنا : سبحان الله وما أبدع ما خلق .

الفصل الثاني

الجمال والقرآن الكريم

الجَمَالُ والقُرآنُ الكرِيمُ

الجمال هو : البهاءُ والرقّة والحُسْنُ كما عرّفه مجمع اللغة العربية في المجلّد الأول من معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره .

وقيلَ في تعريف الجمال أيضاً : إنه حالة حِسِّية أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء قبولاً حسناً مما يدعو النفس إلى أن ترغبَ فيه .

والجمال بطبيعة الحال ليس مقصوراً على بني الإنسان ، إذ قد يكون في الطبيعة وما فيها من حيوانٍ أو طيرٍ أو نبات .

كما يكون الجمال أيضاً في الأقوال والأفعال وفي المعاني وفي الكثير من الأخلاق والطباع .

والدين الإسلامي الحنيف هو الدين الذي يدعو إلى الجمال المعنوي أيَ جمال الروح وجمال النفس وجمال الأخلاق والطّباع .

من أجل ذلك كان من الأمور الطبيعية ألا يرِدَ ذِكْرُ جمال الوجه أو الهيئة الخارجية للرجل أو المرأة في القرآن الكريم سوى مرتين فقط .

في المرة الأولى حذّر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم من أن يخدعه المظهر الخارجيّ لبعض المنافقين وأن المظهر لا يُنْبىءُ في كثيرٍ من الأحيان عن الجوهر فقال الله عزّ وجلّ :

﴿ وإذَا رأَيْتَهم تُعْجِبُك أجسامُهم وإن يَقُولوا تَسْمَعْ لقولِهم كأنّهم خُشُبٌ

مُسنَّدة ﴾[1] صدق الله العظيم

والمرة الثانية التي ذكر فيها القرآن الكريم الجمال أو الحُسْن كان في الآية الكريمة التي خاطب فيها الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم فقال :

﴿ لا يحلُّ لك النساء من بعدُ ولا أن تَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجبك حسنُهُنَّ إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيءٍ رقيباً ﴾[2].

صدق الله العظيم .

والمقصود هنا بلفظة « حُسْنُهنَّ » حسن النساء وجمال وجوههن أو جمال تكوينهنّ بوجه عام .

ويقول (الحسنُ) و(الشعبيُّ) إن الله جلَّت قدرته كان يقصد بالحُسْن في هذه الآية الكريمة الجمال الذي كانت تَتَّسِم به سيدة قرشية كان اسمها (أسماء بنت عَمِيْس) .

كانت أسماء بنت عميس مَتزوِّجةً من جعفر بن أبي طالب ، ثم استُشهد زوجها ، وكانت مشهورةً بالجمال بين قومها فأراد الرسولﷺ أن يتزوّجها بعد أن أكبر فيها عمق إيمانها بالله وأعجب بجمالها فمنعه الله تعالى من طلاق إحدى زوجاته كي يتزوّج من أسماء .

ولكن الله سبحانه وتعالى عندما ذكر الحسن في القرآن الكريم إنما ذكره كصفة لحور الجنان :

﴿ فيهن خيراتٌ حسان ﴾[3] .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ٤ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٢ .

(٣) سورة الرحمن،الاية ٧٠

ولكنه رغم ذلك استبق الحسن بالخير ليكون ذلك درساً لنا أن المرأة الخيِّرة أي المتصفة بصفات خيرة هي أفضل من جميلة الجسد فحسب .

وموجز القول أن الله سبحانه وتعالى لا يقيم اعتباراً أساسياً للجمال الظاهري الذي تكون عليه المرأة أو يكون عليه الرجل .

ويقول رسول الإسلام عليه وعلى آله الصلاة والسلام في هذا المعنى :

«إن اللَّهَ لا ينظُر إلى صُوَرِكم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قُلوبِكم» .

* * *

وإذا ذُكرت سورة يوسف تذكّر الناس ما كان عليه النبي يوسف عليه السلام من جمال نادر .

ويؤكدّ بعض المؤرخين أن يوسف ورث الجمال عن جدته السيدة سارة زوجة أبي الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام[1] .

لقد كان دخول يوسف مصر لأول مرة حوالي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد، وكان ملوك مصر من العمالقة أو العماليق كما يسميهم البعض ، وكان منهم ذلك الملك الجبّار الذي أمر باستدعاء السيدة سارة حين سمع بجمالها الرائع وذهبت إلى قصره وادّعت أنها أخت ابراهيم وليست زوجته ، ولما حاول الملك الطاغية أن يمدّ يده إليها أصاب الله تعالى يده بالشلل فتيّبست ، وكَرّر المحاولة مرة ثانيةً وثالثة فكان الله القدير يشلّ يده ، وقبل

(١) تفصيلات ذلك مذكورة في كتاب (سارة أجمل نساء الارض) أحد كتب سلسلة (قصص القرآن الكريم) لنفس المؤلف ونفس الناشر .

أن يعرف السيدة سارة استدعى إلى القصر أبرع المثّالين وطلب منه أن يصنعَ لوجهها تِمثالاً .

وقيل إن يوسف عليه السلام استشهد فيما بعد بالتشابه الشديد الذي كان بين وجهه ووجه جّدتِه سارة ليدلّل على أنه من ذرية ابراهيم .

ويُخطِيء من يتصوّر أن جمال النبي يوسف كان مقصوراً على جمال وجهه أو جمال جسمه وتناسُق أعضائه .

إن الأمر الذي جعل جمال يوسف نورانياً هو ما كان عليه من سموّ الروح ونقاء السريرة وما أسبغه الله سبحانه وتعالى عليه من العفّة والانصراف عن ارتكاب المعاصي .

وهذه الصفات المعنوية هي التي كانت تعمل على إعداد يوسف بأنوار الملإ الأعلى كما يقول الشيخ العلاّمة : (محيي الدين بن عربي) رضي الله عنه .

إن هذا السموّ الروحيّ والمعنويّ في النبي يوسف عليه السلام هو الذي أضفى على جماله نورانيةً جعلت النساء يَقُلْن عنه إنه ﴿ مَلَكٌ كريم ﴾ حين أدخلته عليهن امرأة العزيز (زُليخاء) كما ورد في القرآن الكريم :

﴿ فلما رأينه أَكْبَرْنه وقَطَّعن أيديَهُنّ وقُلْن حاشَ لله ، ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كريم ﴾[1] . صدق الله العظيم

لو كان جمال يوسف مقصوراً على جمال وجهه أو جمال هيئته العامة دون جمال روحه وسموّ طباعه ، لكان جماله رخيصاً ولما قالت النِّسوة عنه إنه ملَكٌ كريم .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣١ .

إن الجمال ـ مجرّد الجمال ـ إذا كان خُلْواً من جمال الروح وحسن الأخلاق والطباع ، كان نِقْمةً على صاحبه أو صاحبته .

والمجتمعات الإنسانية مليئة بالمآسي الأليمة التي يجرّها الجمال على صاحباته أو أصحابه إذا لم يستمسكوا بمبادىء الشرف والفضيلة ، وأهدروا الجمال وابتذلوه من أجل مظاهر الدنيا التي لا تدوم ، وإشباع لذاتٍ رخيصة يتبعها ندم مرير .

والجمال الظاهر كجمال الزهور لا يلبث أن يذبل ويذوي إذا مرّ عليه الزمن مهما حرص عليه صاحبه .

أما جمال الروح ، فإنه يزداد بهاءً ونورانيّةً كلما حرص صاحبه على الاحتفاظ به ، ويزداد سناءً كلّما حرص صاحبه على تحسينه وتنقيته وصقله والسموّ به .

ولقد تغنّى أغلب الشعراء ـ ولا سيما شعراء الغزل وما يسمونه بالشّعر الغنائي ـ تغنى هؤلاء بالجمال الظاهري فحَسْب ، ولكن هناك فئة من الشعراء ـ وإن كانوا قِلّةً ـ حرصوا على تحذير الناس من الانخداع بالجمال الظاهري دون جمال الروح والطّباع .

ومن هؤلاء الشعراء من قال :

مـمّـا أضـرّ بـأهـل الـعِـشـق أنـهـم
هَـوَوْا ومـا عـرفـوا الـدنـيـا وما فطنوا
تَـفْـنى عـيـونـهـم دمـعـاً وأنـفـسـهـم
فـي إثْـر كـلِّ قـبـيـحٍ وجهه حَـسَـنُ

وقال المتنبيّ :

يـحـب الـعـاقـلون عـلى الـتّـصـافـي
وحـبّ الـجـاهـلـيـن عـلى الـوَسـام

وآنف من أخي لأبي وأمي
إذا لم أجده من الكرام
ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

ومن أقوال الرسول ﷺ :

« إياكم وخضراء الدِّمَن ».

وسأله سائل :

ـ وما خضراء الدِّمَن يا رسول الله ؟ .

قال عليه الصلاة والسلام :

« المرأة الحسناءُ في منبت السوء ».

* * *

لما كان الدين الإسلاميُّ الحنيف يحرص على السموّ بروح الإنسان ، فإن الله جلّ ثناؤه ذكر الجمال في القرآن الكريم مقروناً بالصفات المعنوية للإنسان .

لقد وصف الله سبحانه وتعالى صبر يعقوب عليه السلام بأنه صبرٌ جميل .

والصبر الجميل هو أن يصبر الإنسان صبراً لا تبرّم معه ، وألا يشكوَ للناس ممّا أَلَمَّ به ، بل يجعل شكواه مقصورةً على نجواه مع الله تعالى .

قال جلّت حكمته ـ على لسان يعقوب لأبنائه بعد أن أخبروه كذباً بأن يوسف قد أكله الذئب :

﴿ وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذِبٍ قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً

فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[1]. صدق الله العظيم .

والصبر على المكاره من الصفات المعنوية السامية التي إذا تحلّى بها الإنسان تُعمِّق إيمانَه بالله تعالى ، وبالتالي يزداد جمال روحه .

والمرأة إذا تحلَّت بالصبر مع الإيمان فإنها تزداد جمالاً في عيني زوجها ، إذ أن حياة كل أسرة من المستحيل أن تخلو من المشاكل والصدمات والنكبات ، فإذا كانت المرأة قليلة الصبر ، أصبحت تتبرم بالحياة كلما واجهتها إحدى مشاكلها ، والمرأة الكثيرة التبرّم والشكوى ، السريعة الجزع تقلب حياة أسرتها وحياة زوجها إلى ما يشبه الجحيم ، ومثل هذه المرأة مهما أوتيت من جمال ، تسلب الجمال شرطه الأساسيَّ وخاصِّيته الرئيسية وهي إحساس الناس بالارتياح إليه والرغبة فيه ؛ فهي بتبّرمها وكثرة شكواها وجزعها تجعل أقرب المقربين إليها يعزف عنها ، ويزهد فيها ، بل تدفعه دفعاً إلى تجنّبها والابتعاد عنها أطول وقت مستطاع .

ولذلك وردت كلمة « الصبر » ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة .

ومن أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصبر :

- « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

- «الصبرنصف الإيمان » .

- « ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً أوسع من الصبر » .

والصبر مع الإيمان كان من شِيم كل الأنبياء والمُرسلين عليهم السلام:

لقد صبر يوسف على ما فعله معه إخوته حين ألقوه في الجبّ ثم

---

(١) سورة يوسف الآية ١٨.

باعوه بيع الرقيق[1] .

وصبر رسول الإسلام محمد ﷺ صبراً عظيماً على إيذاء الكفار والمشركين .

وامتازت زوجات الأنبياء كذلك بالصبر على المكاره التي كانت تصيب أزواجهن .

كانت السيدة سارة زوجة ابراهيم أبي الانبياء عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى من أمثلة الصبر على المكاره فزادها صبرها وأيمانها العميق بالله جمالاً على ما كانت تتّصف به من جمال ، حتى أن بعض المؤرخين قالوا إنها لبثت على جمالها بعد أن تجاوزت الثمانين من عمرها ، ولبثت كلمتها هي النافذة على ابراهيم رغم زواجه من السيدة (هاجر) أم سيدنا اسماعيل ـ سلام الله عليهم جميعاً ـ رغم أن هاجر كانت في ربيع عمرها [2] .

وكانت السيدة (خديجة بنت خويلد) أولى زوجات الرسول ﷺ مثلاً لا يُدانى في الصبر ، وتحملت مع زوجها الكريم عَنت المشركين ، وكانت تشجّعه وتواسيه وظلت كذلك حتى آخر لحظة من حياتها[3] .

• • •

من السجايا الأخرى التي وصفها الله سبحانه وتعالى بالجمال : الصفح .

---

(١) تفصيلات ذلك في كتاب (حينما باعوا النبيّ) أحد كتب سلسلة (قصص القرآن الكريم) لنفس المؤلف ونفس الناشر .

(٢) تفصيلات ذلك في كتاب (سارة اجمل نساء الارض) أحد كتب سلسلة (قصص القرآن الكريم) لنفس المؤلف ونفس الناشر.

(٣) راجع كتاب (خديجة بنت خويلد) من سلسلة (عظماء الاسلام) لنفس المؤلف ونفس الناشر .

والصفح الجميل هو الذي لا عتاب فيه ولا لوم ولا تثريب أو تأنيب .

قال الله جلّ شأنه :

﴿ وما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وإنَّ الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾[1] صدق الله العظيم .

وقال الإمام عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية الكريمة إن الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب .

والمرأة التي تمتاز بسجيَّة الصفح تصبح محبوبةً في الأسرة التي تعيش فيها .

إن أيــة حياةٍ زوجية ، كما سبق أن قدّمنا ، لا يمكن أن تخلو من مشكلات ، والتشبّث بالرأي والعناد وعدم التسامح يُنَفِّر الزوج من زوجته كما يُنفِّر الزوجة من زوجها .

والمرأة التي تصفح الصفح الجميل تزداد جمالاً في عيني زوجها ويصبح ودُّهما صافياً رائعاً يزيل الصفح الجميل ما قد يُصيب رحيقه الحلو من شوائب .

ووصف الله عزّ وجل السّراح - أي الطلاق - ، بالجمال .

والطلاق الجميل هو ما كان مصحوباً بالإحسان إلى المرأة المطلّقة لا بالإساءة إليها .

قال تعالى :

﴿ يا أيها النَّبيّ قُل لأزواجِك إن كنتُنّ تُرِدْن الحياة الدنيا وزينتها

(١) سورة الحجر الآية ٨٥ .

فتعالين أُمتِعْكُنَّ واسرّحكنّ سراحاً جميلاً ﴾[1]. صدق الله العظيم .

والسراح هو الطلاق كما قدمنا ، والسراح الجميل كما قال الله تعالى لرسوله الكريم هو أن يكون طلاق النبيّ لزوجاته مصحوباً بالإحسان .

ولطلاق زوجات النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام قصة طويلة لها مغزاها العظيم ، لا يتّسع مجال هذا الكتاب لسردها[2] .

وتحدّث القرآن الكريم في آياتٍ أخرى عن الجمال الذي أسبغه الله تعالى على الكون .

والمقصود بالجمال هنا : جمال الكون من وجهة نظر سكان الكرة الأرضية .

لقد قال الله عزّ وجل :

﴿إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾[3].

وقال جلّت حكمته :

﴿ وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[4].

وقال تعالى :

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعْتَدْنا لهم عذاب السعير ﴾[5].

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٢٨ .

(٢) تفصيلات ذلك مذكورة في كتاب (طلاق زوجات النبيّ) أحد كتب سلسلة (قصص القرآن الكريم) لنفس المؤلف ونفس الناشر .

(٣) سورة الصافات آية ٦ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .

(٥) سورة الملك الآية٥ .

وكما تحدث القرآن الكريم عمّا في السماء من جمال ، وردَت فيه آياتٌ عديدة عما أسبغه الخالق القدير من آيات الجمال على الأرض .

من ذلك مثلاً ما ذكره الله عزّ وجلّ عن جمال النبات والزهور والثّمار عند يَنعِها :

قال عزّ وجلّ :

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجنا منه خَضِراً تُخرج منهُ حَبّاً متراكباً ومن النخل من طَلعِها قِنْوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمَّان مُشْتَبِهاً وغيرَ متشابهٍ . انظروا الى ثمره إذا أثمر ويَنْعِه إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾[1] . صدق الله العظيم .

كما تحدث الله سبحانه وتعالى عن الجمال الذي تراه عين الإنسان في المراعي الخضراء حينما تردُها الماشية والأغنام ، ذلك الجمال الذي استوحى منه عددٌ غير قليلٍ من كتاب القصة والشعراء والموسيقيين والرسامين أعمالهم وسرحت فيه أخيلتهم عن الراعي عازف الناي ، وضوء القمر الفضيّ وهو يغمر المراعي الخضراء ، وما إلى ذلك من أفكارٍ .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ والأنعام خلقها .لكم فيها دف ءٌ ومنافِعُ ومنها تأكلون* ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون ﴾[2] صدق الله العظيم .

﴿حين تُريحون﴾ أي حين تردُّون الأنعام إلى مراحها والمراح هو مكان الراحة الذي تأوي إليه الأنعام ليلاً ، كالحظيرة مثلاً .

---

(١) سورة الانعام الآية ٩٩.

(٢) سورة النحل الآيتان ٥ و٦ .

و﴿حين تسرحون﴾ : أي حين يذهب الناس بأنعامهم بالغداة الى مراعيها الخضراء . فتنطلق الأنعام في المراعي ومعها صغارها ، وهو منظر فيه الكثير من الجمالِ والمتعة .

* * *

مما تقدّم نرى أن القرآن الكريم ذكر الجمال مقروناً بالصفات المعنوية الحسنة للإنسان : كالصبر والهجر والصفح الجميل وما إلى ذلك .

أما الجمال الحِسّي ، أو الجمال الماديّ الذي تشعُر به حواسُّنا الجسدية ، فقد جعله القرآن الكريم مقروناً بالمناظر الطبيعية التي حولنا كزينة السماء واخضرار الأرض وتفتّح الأزهار ، وما إلى ذلك من آياتٍ أخرى تنطق بقدرة الخالق المقتدر جلّ وعلا .

ذلك فيما يتعلّق بحياتنا الدنيوية .

أما ضروب الجمال الحسِّي في الجنة التي وعد بها الله تعالى عباده المؤمنين ، فهي لا تقع تحت حصر ولا تخطر ببال البشر ، ففي الجنة من ألوان الجمال ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت . .

وسنفرد فصلاً خاصاً للحديث عن الجمال في جنة الخُلْد بوجه عام ، وعن جمال النساء والحور العين بوجه خاص .

* * *

وقبل اختتام هذا الفصل عن مفهوم الجمال في القرآن الكريم ، يجدر بي أن أُشير إلى أنه لم تَرِدْ لفظةٌ واحدةٌ في سورة يوسف تشير صراحةً إلى ما كان عليه من حُسْنٍ وبهاءٍ اللهم إلاّ في الآية الكريمة السابق ذكرها حينما قالت النّسوة إنه مَلَكٌ كريمٌ وقطّعن أيديهن .

ويستفاد من ذلك أن الجمال ـ سواء في ذلك جمال الرجل أم جمال المرأة ـ لا يُقاس بجمال الخلقة فحسب ، بل بجمال الخُلق والروح .

وإلى جانب ذلك يمكننا القول إن من بين نِعم الله تعالى على يوسف عليه السلام ذلك الجمال الرائع لوجهه وهيئته بوجهٍ عام ، ولكن ذلك الجمال كان سبباً للكثير من المِحَن والكوارث التي ألَمَّت بيوسف .

ولكن يوسف تحمَّل هذه المحن والكوارث بصبر عظيم وإيمان عميق بالله تعالى ؛ فكانت تلك البلايا التي صادفته سبباً في النِّعَم العظيمة التي أسبغها الله عزّ وجلّ على يوسف وعلى آله ، بل وعلى جميع أهلِ مصر في أثناء سنوات المجاعة والجدْب .

وقد قال الفقيه العربي (ابن عطاء الله السكندري) :

« رُبَّما كمنت المِنَنُ في المِحَن وكمنت المِحَن في المِنَن ».

وقال حكيم آخر :

« ربَّ غُصةٍ جارحة تكمن وراء فرصة سانحة والعكس صحيح ».

الفصل الثالث

الجمــال والطّــاعَــة

الجمالُ والطَّـاعَة

قد يكون للوالدين عدة أبنـاء أو عدة بنـات ، وأقرب الأبنـاء أو البنات إلى قلب كلٍ من الوالدين أكثرهم طاعة وأوفرهم امتثالاً لأوامرهما .

والمقصود بالطاعة هنا هو الطاعة التي أمر بها الله سبحانه وتعالى ، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في مَعْصيةِ الله . فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ووّصينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك لتُشركَ بي ما ليس لـك به علم فلا تُطِعْهما ، إليَّ مرجعكم فَأُنَبِّئُكُم بما كنتم تعملون ﴾[1] .

صدق الله العظيم

ومعنى الآية واضح لا يحتاج منّا إلى شرحٍ أو تفسير ؛ فطاعة الأبناء للآباء والأمهات ، وطاعة المرأة لزوجها لا تكون طاعةً عمياء ، بل يجب أن تكون في الحدود التي رسمها الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم .

ولقد أثار موضوع طاعة المرأة لزوجها وما زال يثيـر الكثير من الجـدل والنقاش .

إن بعض النسـاء يرين في وجـوب الطاعـة لونـاً من الإذلال لكرامتهن وامتهاناً لعزة أنفسهن . وهـذه النظرة خـاطئة كـل الخطأ ، وإذا تشبَّثت بهـا

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

زوجةٌ ما جعلت من حياتها مع زوجها جحيماً لا يُطاق . إذ أن إقحام عزة النفس والكبرياء ، في النقاش الذي يدور بين الزوج والزوجة أو في الحياة الزوجية بوجه عام يُخَلْخِل الاستقرار المنزلي ، ويهدِّد تماسك الوحدة النفسية والشخصية التي يجب أن تشكِّل الاندماج الزوجي ، لأن عزة نفس الزوجة هي جزء من عزة نفس الزوج . والعكس صحيح أيضاً .

ليس معنى ذلك أن يستغِلَّ الرجل حَقَّه لكي يبسط سلطانه على زوجته ، ويمحو إرادتها ويسحق شخصيتها فهو بذلك يَمسخ الزواج إلى لونٍ قاتمٍ من الرقّ والعبودية ، ويخرج به عن معناه الأسمى .

ومما لا شكَّ فيه أن أروع ما في الزواج الأمومة . ومعنى ذلك ان الزوج يتحتّم عليه ألا ينظر إلى زوجته كمجرد امرأة يستمتع بها وبجمالها ويسخّرها في أداء ما يتطلبه منزل الزوجية من أعمال ، بل على الرجل العاقل الرحيم أن يُعدَّ زوجته لكي تكون أماً صالحة لأبنائه وبناته وشريكةً لحياته .

والزوجة المسلوبة الإرادة المعدومة الشخصية لا تصلح بطبيعة الحال لكي تقوم بدور الأمومة الصالحة ، وهو دور بالغ الخطورة . إذ المعروف أن دور الأم في حُسن تنشئة الأبناء والبنات أهم وأخطر بكثير من دور الأب في هذا الصدد ، لأنها أكثر التصاقاً بهم فالأب يستغرق عمله السواد الاعظم من وقته .

إن على الوالدين بطبيعة الحال أن يُحسنا تربية ابنتهما ويُشرفا على رعايتها لتكون زوجة صالحة . وتكون بالتالي أمّاً صالحة .

ولكن دور الوالدين ينتهي حينما تتزوج الفتاة وتصبح في رعاية زوجها وتحت إشرافه وتوجيهه .

ولذلك فإن على الزوج أن يستكمل ما عسى أن يكون قد فات

الوالدين ، وعلى الزوجة ايضاً أن تستكمل من نفسها وبنفسها ما يكون قد فاتها من تربية والديها من حيث طاعتها لزوجها طاعةً معقولة تحقق بها السعادة والاستقرار لحياتها الزوجية .

إن الزوجة مهما كانت جميلة الوجه أو جميلة الهيئة وكانت تعصى زوجها وتتكبَّر أو تترفَّع عليه ، فإن جمالها في عينيه لا يلبث أن يذوي ويذبل رويداً رويداً ، لأن الجمال مع النقاش والعناد والعصيان ، يشبه الزهور التي تكتنفها الأشواك الحادة وتغشاها الحشرات اللاّدغة ويغمرها لهيب الشمس المحرقة ! . .

إن الإنسان مهما بلغت درجة إعجابه بمثل تلك الزهور اليانعة الجميلة ، ومهما كان ملهوفاً على استنشاقِ شذاها وعطرها ، يُفضّل أن يَفرَّ من الأشواك الحادة والحشرات اللادغة ولهيب الشمس إلى مكان ظليل فيه حشائش خضراء ناعمة رطبة ، وإن خلا هذا المكان من الأزهار .

لذلك طالما سمعنا عن بعض المآسي التي تتعرّض لها الحياة الزوجية ؛ فيُفاجأ بعض الناس بأن رجلاً هجر أو طلّق زوجته الجميلة ليتزوّج من امرأة أخرى أقل منها جمالاً وأدنى منها حَسَباً ونسباً .

إن أسباب الغالبية العظمى في مثل هذه المآسي تكمن في سوء المعاشرة ، وعصيان الزوجة ، وحبها للجدل وللنقاش ، كما ترجع أيضاً إلى عدم تسامح الزوج وقلة حظه من الصبر أو افتقاره إلى الكياسة والرِّفق .

والمرأة إذا تزَوجت ، فإنها هي وزوجها يكوّنان النواة للأسرة ، والأسرة ما هي إلا مجتمع صغير .

ومن الأمور البدهية أن كل مجتمع ـ حتى يتصلح أمره ـ يجب أن يكون فيه القوي والضعيف ، بل إن جسم الإنسان نفسه لا تتساوى فيه جميع أعضائه من حيث قوة كل عضوٍ منها : فالذراع اليمنى أقوى من

اليُسـرى . . ورغم ذلك لا تتشـاجر الـذّراعـان . . ولا تبغي الـذراع اليمنى على الذراع اليسرى ، كمـا أن الذراع اليُسـرى لا تغضب لأن اليمنى أقوى منها ، ولكنهما تتعاونان سوياً لسد حاجات ومتطلّبات الجسد بأكمله .

والمـرأة خُلقت بطبيعتهـا ضعيفة لينـة! . . وفي ضعفهـا ولينهـا يكمن جمـالها . . وتكمن رقّتهـا . . وما من شـك في أن الرقّـة والنعـومـة من أرقى وأحلى وأسمى سمات الجمال.

والحبّ الزوجيّ يشبه إلى حدٍّ كبير الدائرة الكهربائيـة ، فيها القـطب السالب والقطب الموجب ؛ ولو كان هناك قطبان موجبان ، لما سرى التيـار الكهربائي .

ونحن ـ مـع ذلك ـ إذا تحـدثنا عن القـوة ، فليس المقصود بهـا القوة العضلية أو قوة الجسم ، إذ لا عبرة لقوة الجسم إلاّ في عـالم الحيوانـات ؛ لذلك كان أحط أنواع الرجال هو ذلك الرجل الـذي يستغلّ قـوته الجسـدية للسيطرة على زوجته ولإيذائها .

سيجرنا الحديث عن الضرب والإيذاء إلى استعراض مـا ورد في قول الله عزّ وجل :

﴿ الرجالُ قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ، فـالصالحـات قانتـات حافـظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافـون نشوزهن فعِـظوهن واهجروهن في المضـاجع واضـربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغـوا عليهن سبيلاً ، إن الله كـان علياً كبيـراً ﴾[1].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

وكلمة « النشوز » الواردة في الآية الكريمة معناها الترّفع والتعالي عن طاعة الزوج . ويقول العرب : « فلان وقف على نشز من الأرض » أي وقف على جزءٍ مرتفع منها .

وقد يحسب البعض أن اعتزاز المرأة بكرامتها هو ظاهرة من مظاهر العصر الحديث والحركات التحرّرية التي نادت بمساواة المرأة للرجل في حق التعّلم وحق الانتخاب وما إلى ذلك . ولكن الحقيقة أن النساء العربيات كنّ ـ حين نزول القرآن الكريم ـ أشد استمساكاً بعزة النفس من عدد كبير من نساء عصرنا الحديث .

ويروي (مقاتل) القصة التي كانت سبباً في نزول هذه الآية الكريمة فيقول :

« نزلت الآية في (سعد بن الربيع بن عمرو) وكان من النقباء وفي امرأته (حبيبة بنت زيد بن أبي زهير) وهما من الأنصار . وذلك أن (حبيبة) نشزت على زوجها فلطمها على وجهها فذهبت إلى أبيها . واصطحبها أبوها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له :

ـ أفرشته كريمتي فلطمها؟! . .

ولما كان الرسول ﷺ يكره إيذاء الزوجات ومن أقواله « خياركم خياركم لنسائهم » فقد قال ﷺ :

ـ لِتَقتصَّ من زوجها .

أي أن الرسول ﷺ أمر بأن تلطم (حبيبة) زوجها كما لطمها هو .

وانصرفت (حبيبة) مع أبيها لتقتصّ من زوجها :

ولكن النبي ﷺ غشيه ما كان يغشاه حين يهبط عليه جبريل عليه السلام بالوحي وما لبث أن قال لمن حوله :

ـ أردنا أمراً وأراد الله سبحانه وتعالى أمراً ، وما أراده عزّ وجلّ خير .

وأرسل من أدرك حبيبة وأباها ليردهما عما كان قد افتاهما فيه !! .

هـذه هي القصة التي ذكـرها (مقـاتل) وقـال إنها كـانت السبب في نزول تلك الآية الكريمة.

ويذكر (الكلبي) قصة أخرى مشابهة وقعت بين (سعـد بن الربيـع) وامرأته (خولة بنت محمد بن سلمة). كمـا ذكر (أبـو روق) قصة تشبهها قال أنها نزلت في (ثابت بن قيس بن شمـاس) وزوجته (جميلة بنت عبـد الله بن أبيّ) .

والآية القرآنية الكريمة تقول : ﴿ الـرجال قـوّامون على النسـاء ﴾ أي مسلّطون عليهن في التدبير والتأديب والتعليم . وذكر سبحانه وتعالى السبب في ذلك فقال :

﴿ بما فضّل الله بعضهم على بعض ﴾.

أي أن الله تعالى ـ بحكمته ـ ولّى الرجال أمر النساء لما لهم من زيادة الفضل عليهم بحسن الرأي والعقل والعلم وقوة العـزم . ولسبب آخر ذكـره الله تعالى وهو :

﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ .

فالرجل عادةً هو الذي يتحمل الإنفاق على زوجته وأسرتـه كما يـدفع المهر قبل الزواج .

أما ﴿ فالصالحات قانتات ﴾ أي مطيعات لله ولمـا أمر بـه الله تعالى من الطاعة لأزواجهن .

و﴿حـافـظات للغيب﴾ يعني حـافـظات لأنفسهنّ وفـروجهن إذا غـاب الزوج عن زوجته . وحـافظات أيضـاً لأموال أزواجهن وحسن الحـديث عن الزوج في أثناء غيابه وعدم الشكوى منه أو التبرّم بالحياة معه .

وإذا نشزت المرأة وعصت زوجها وتعالت عن طاعته ، فلا يبادر بضربها ، فعليه أولاً أن يعظها بالقولِ وأن ينصحها ويُفهمها أنها بعصيانها تبتعد عن قلبه كما تبتعد كذلك عن رضاء الله تعالى .

ويجب أن تكون مثل هذه النصائح باللين وبالرفق ، أما إذا قيلت في لهجةٍ غاضبة فإنها لن تجدي شيئاً وقد تزيد المرأة عناداً على عنادها .

وإذا لم تنجح طريقة الرفق هذه فلا مانع من أن يعظها مرةً أخرى بشيءٍ من الشدة كما يقول (الفراء) .

وإذا لم ينجح الوعظ ولم تنفع النصيحة فعلى الزوج أن يتخذ خطوةً أخرى في سبيل إصلاح زوجته . . وهذه الخطوة هي التي عيَّنها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ فعِظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع ﴾.[1]

إذن : الهجر في المضاجع يعتبر المرحلة الثانية من مراحل تأديب الزوجة التي تسعى إلى إفساد هناء الحياة الزوجية وزعزعة استقرارها بنشوزها .

وقد أفاض الشرّاح والفقهاء في تفسير معنى الهجر في المضاجع وفي جدواه .

وفي هذه الإفاضة ما يدلّ على أن الدين الإسلامي اهتمّ اهتماماً كبيراً بالنفس البشرية عامة وبما يسمّونه في العصر الحديث « بنفسية الحب « La Psychologie D'amour »

قال (سعيد بن جُبير) إن الهجر في المضاجع عُني به الجماع وقد

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

ذكرت المضاجع لاختصاص المضاجع بها .

وليس المقصود بالجماع العملية الجنسية في حد ذاتها ، لأن هذه العملية إذا تجرّدت من العاطفة الحلوة الجميلة المتبادلة بين الزوجين ، أصبحت عملية حيوانية بحتة لا همّ للرجل من ورائها إلا إطفاء جذوة شهوته ، ولأية امرأة لا ترضى لكرامتها كزوجة أن تكون مجرد أداةٍ أو مجرد وسيلةٍ لإشباع هذه الرغبة الحيوانية إن لم تتزن وتمتزج بها عاطفة الحب الصادق ، بكل ما في هذه العاطفة من مشاعر وأحاسيس .

وعلى ذلك ، فالزوجة لا تحبّ زوجها ولا تميل إليه بروحها وقلبها ، ولا تكترث كثيراً إن هو هجرها في المضجع بل لعلها تستريح إلى ذلك .

وفي رأيي أن ما قاله كل من (الحسن) و(قتادة) و(عطاء) هو أقرب إلى الحقيقة والمنطق . إن قالوا إن الهجر في المضاجع يُظهر حب الزوجة لزوجها أو بغضها له ، فإذا كانت تحبه لا تصبر على فراقه في المضجع حتى وإن لم يجامعها ، فالمهم هو شعورها بأنه يرقد إلى جوارها وأنها ترقد إلى جواره فهي بضعة منه وهو ملجأ لها .

وفي هذا المعنى يقول (أبو جعفر) إن الهجر في المضاجع لا يستتبع حتماً نوم الزوج في حجرة أخرى غير التي اعتاد أن ينام فيها مع زوجته ، بل يكفي أن ينام معها في نفس المضجع ولكنه يحوّل ظهره إليها ، ولا يمسّها ولا يداعبها ويكون قليل الكلام معها لا يريها من اللُطف والعطف ما اعتادت عليه من قبل في مضجعهما .

ومثل هذا المسلك من الزوج إزاء زوجته التي يعلم أنها تحبّه ، يؤلمها أبلغ الألم فتسعى قدر طاقتها إلى استرضائه وعدم العودة إلى نشوزها وعصيانه .

وإذا لم ينفع الوعظ ولم ينفع الهجر في المضاجع فتأتي المرحلة الثالثة من التأديب وهي :

﴿ واضربوهن فإن أطعْنكم فلا تَبْغوا عليهن سبيلاً إنَّ الله كان عليّاً كبيراً ﴾ .

وقد تحدّث الفقهاء كثيراً عن الضرب ومعناه وموجباته كما تحدثوا أيضاً عن مداه .

لقد أجمع الشرّاح والفقهاء على أن الضرب المنوّه عنه في هذه الآية الكريمة هو الضرب غير المبرّح ، أي الضرب الذي لا يُسبِّب ألماً كبيراً والذي يتحاشى الوجه ومحاسنه .

وقال بعضهم إنه الضرب الذي لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً .

وقال (أبو جعفر) إنه الضرب بالسِّواك! . . وهو قطعة لينة من غصن تنظف به الأسنان ولا يزيد طولها بأية حالٍ من الأحوال عن الشِّبْر! . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أوصانا بأن نجعل من رسوله الكريم أسوة لنا ، وأن نحذو حذوه في جميع تصرّفاته ، فمن المعروف عن الرسول ﷺ أنه لم يضرب يوماً إحدى زوجاته ، بل إنه ـ بخلُقه الكريم العظيم الذي هو خُلُق القرآن ـ لم يحتدمْ به الغضب يوماً أو ساعة أو لحظة بحيث يرتفع صوته وهو يناقش أو يعاتب إحدى زوجاته .

معنى ذلك أن الرجل العاقل الكريم الذي يحترم نفسه يجب عليه أيضاً أن يحترم إنسانية زوجته وأن يحرص على عدم إهدار كرامتها ولا سيما أمام ابنائها أو غيرهم من الناس .

والغضب كما يقولون : نصف الجنون ، فإذا فُرض وأثارت زوجةٌ زوجها بعنادها أو بعصيانه في أي أمر من الأمور فيجب على الزوج الذي يحترم نفسه ويحرص على دوام سعادته الزوجية ألا يخضع لشيطان الغضب وأن يكون حليماً حكيماً! . . لأنه إذا استسلم للغضب فإنه سيؤذي زوجته بلسانه وقد يتطوّر ذلك إلى إيذائها بيده ويكون لها إذ ذاك بعض الحق في أن

تحقد عليه ، لأنه لجأ إلى قوته الجسديَّة ليعتدي عليها ! . أي أنه تشبه في ذلك بالحيوان الأعجم الذي لا يفهم إلا منطق القوة العمياء .

وما يُقال عن الزوجة يقال أيضاً عن تأديب الأبناء والبنات ، فلا يجب ضربهم إطلاقاً؛ وَلَوْ أَنَّ أحد الوالدين قد تملّكه شيطان الغضب .

إن الرِّفق هو خير فضيلة يمكن أن يتحلّى بها الإنسان ؛ وما اقترن الرفق بشيء إلا زانه ، وما زايل شيئاً إلاَّ شانَه . . وهذا هو رأي الرسول الكريم .

قد يقول البعض أن زوجات الرسول ﷺ كن مطيعات قانتات فلم يكن هناك ما يدعو إلى غضب النبي ﷺ . ولكن من يقرأ سيرة النبيّ الكريم يعلم أنه بشر وأنه لاقى في حياته الزوجية الكثير من المتاعب وهذا أمرٌ طبيعي[1] .

وفي حياة الرسول ﷺ ما يدلّ دلالةً قاطعةً على أنّ طاعة الزوجة ليس معناها استعبادها أو إلغاء آرائها الشخصية .

من ذلك مثلاً أنه حدث خلاف بين الرسول ﷺ وزوجته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها . .

ولم ينجح الرسول ﷺ في إقناع السيدة عائشة بوجهة نظره وهو رسول الإسلام والملك غير المتوج على الجزيرة العربية .

ولم يغضب الرسول ﷺ، ولم يحاول أن يفرض عليها رأيه لأن الرجال قوامّون على النساء ؛ ولكنه قال لها في هدوء وحنان عظيمين :

---

(١) راجع كتاب (طلاق زوجات النبي) أحد كتب سلسلة (قصص القرآن الكريم) لنفس المؤلف ونفس الناشر .

ـ من ترضين أن يكون بيني وبينك ـ حكماً ـ أترضين بأبي عبيدة الجراح؟ . .

قالت السيدة عائشة :

ـ لا . . ذلك رجلٌ هيِّن ليّن يقضي لك ! . .

وتحمّل الرسول الرحيم الحليم هذا الاتهام غير المباشر بعدم العدالة ثم سألها مرة أخرى :

ـ أترضين بأبيك؟ . .

قالت السيدة عائشة :

ـ نعم أرضى . .

واستدعى الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

وقال الرسول لزوجته :

ـ أقصصي . .

أي أنه طلب منها أن تبدأ هي بسرد قصة الخلاف الذي كان بينهما .

قالت السيدة عائشة :

ـ لا . . بل اقصص أنت . .

وابتدأ محمد ﷺ يذكر لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قصة الخلاف الذي كان بينهما .

ويبدو أن السيدة عائشة رضي الله عنها خشيت ـ من طريقة سرد النبي ﷺ لما حدث ـ أن يحكم له أبو بكر رضي الله عنه فقالت له في شيء من الغضب :

ـ أقصد! . .

أي أنها طلبت منه أن يسرد الحقيقة بعينها ولا يزيد عليها شيئاً !. .

وما كاد أبو بكر الصديق رضي الله عنه يسمع ابنته تقول ذلك للرسول الكريم ﷺ حتى تملكه الغضب وصاح في وجهها :

ـ تقولين يا بنت أم رومـان أقصد!. . من يقصـد إذا لم يقصد رسـول الله !. .

ولطمها أبو بكر رضي الله عنه لطمةً شديـدةً على وجهها أسـالت الدم بغزارة من أنفها وشفتيها !. .

كان أبو بكر رضي الله عنه ينظر إلى محمدﷺ كـرسول الله !. وكـان الرسول ﷺ نفسه يعتبر نفسه مع عائشة رضي الله عنها ـ وغيرها من زوجاته ـ زوجاً كريماً رحيماً حليماً تمتزج عاطفته بالحنوّ والرِّفق والأناة .

وأراد أبو بكر رضي الله عنـه أن يواصـل تأديب ابنتـه بالضـرب ولكن أمارات عدم الرضى ارتسمت على وجهه الكريم ومنع ابا بكر وهو يقول لـه في تأثر :

ـ إنّا لم نُرد هذا . . إنّا لم نرد هذا يا أبا بكر . .

واندفعت عائشة رضي الله عنها لتحتمي بزوجها النبيّ ﷺ من أبيها . . وانصرف أبو بكر.

هذا مثل من الأمثلة العديدة لما كان عليه الرسول ﷺ من خلق عظيم في معاملة زوجاته .

وما حدث مع عائشة حدث أيضاً مع أم المؤمنين السيـدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

لقد ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه غـاضباً إلى ابنتـه لأنه علم أنها تُراجع النبيّ أي تناقشه حتى تغضبه وكاد يفعل معهـا كما فعـل أبو بكـر

مع ابنته عائشة ، وتدخلت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وقالت له :

ـ عجباً يا ابن الخطاب !. . أعطيت لنفسك الحق في التدخل في كل شيء حتى أنك تتدخل بين الرسول ﷺ وزوجاته !. .

وهدأ عمر . . وانصرف . .

اذن الطاعة التي فرضها الله على المرأة لزوجها ، ليست إذلالاً أو استعباداً أو محواً لشخصية الزوجة وتسفيهاً لآرائها الخاصة .

والمرأة العاقلة هي التي يمكنها أن تسيطر على زوجها بسلاح الطاعة لا بسلاح العصيان .

إن الطاعة تجرّد الزوج من كل أسلحته .

إن المرأة يمكنها أن تفوز بالكثير إن هي استعملت سلاح الحبّ والرّقة واللين .

أمّا العناد والجدل والمشاكسة والاستعلاء وحشر الكرامة في كل شيء فكلها أسلحة عكسية ، أي أنها ترتدّ الى سعادة الزوجة فتمزّقها شر ممزّق .

وطاعة المرأة ليست شيئاً هيّناً، ولذلك قال الرسول ﷺ إن طاعة الزوجة هي جهادها الأكبر.

* * *

إذا فرض أن استحكم الخلاف بين الزوجين ولم يحسمه الوعظ أو الهجر في المضاجع أو الضرب غير المبرّح ، فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الوسيلة التي يلجأ إليها كلُّ واحدٍ من الزوجين لمحاولة فضِّ هذا الخلاف .

قال جلّت قدرته :

﴿ وإن خِفْتُم شقاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً من أهلِه وحكَماً من أهلها إنْ

يـريدا اصـلاحاً يـوفّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إنّ اللهَ كـان عليماً خبيـراً ﴾[1]

صـدق الله العظيم .

وهذا ما فعله الرسولُ عليـه وعلى آله الصـلاةُ والسلام حين استـدعى أبا بكـرٍ الصديق في الخـلاف الذي حـدث بينـه وبين أم المؤمنين السيـدة عائشة والذي سبق أن أشرنا إليه .

يقول الله سبحانه وتعالى ذلك لأنه وصف الزواج بأنـه ميثاق مقـدس غليظ ، لا يحق لأحـد من الزوجين ، إذا كـان يخشى الله واليوم الآخـر أن يستهين به .

فإذا استحكم الخلاف بين الزوجين وخشي منه أن يستتبـع شقاقـاً فلا بد من استدعاء حكمٍ من أهل الزوج وحكمٍ من أهل الزوجة .

ويجب بطبيعة الحال أن يكون كل واحدٍ من الحكمين متصفاً بالنزاهة المطلقة ، يحرص كل الحرص على إزالة ذات البين بين الـزوجين والإبقاء على الحياة الزوجية .

وبمعنى آخر ، يجب أن يريد كل من الحكمين إصلاحاً كمـا قال الله سبحانه وتعالى .

ولكن الملاحظ ـ في أيامنـا هذه ـ أن نسبـةً كبيرةً من الخـلافات التي تحـدث بين الزوجين ، يتسبب فيهـا أو في مضاعفتهـا واستفحالهـا تـدخّـل الأهل ، سواء في ذلك أهل الزوجة أم أهل الزوج .

إن تدخل أم الزوجة أو أم الـزوج وهو مـا يسميه الفـرنسيون « مـرض الحماة : «La maladie de belle - mère» .

---

(١) سورة النساء الآية (٣٥) .

إن أم الفتـاة ـ أو بعبارة أدق ـ أمهـات بعض الفتيات ـ تعتقـد الواحدة منهنّ أنها تملك من ابنتها كـل شيءٍ! . ما دامت قـد ولدتهـا وربّتها ، وهي لذلك تستكثـر خضوع ابنتهـا لطاعـة زوجها ، لأن الأم لا تـريد أن تخْضـع ابنتها لأحدٍ سواها .

ويقول الانكليز عن أم الفتاة في هذه الحـالة إنهـا تريـدها دائمـاً أبداً مربوطةً إلى حزامها :

« She wants her daughter attached for ever to her belt!»

ولـذلك تتسبب الحمـاة في تحريض ابنتهـا على عصيان زوجهـا فتجسّم لها أخطاءه ، وإذا حدث خلاف بين الزوجين تعمل على استفحاله .

ومثل هذه الأم لا يصح بأي حالٍ من الأحوال أن تكون حكماً ـ كمـا ذكر الله تعالى ـ في أي نزاع ينشأ بين ابنتها وزوجها . وذلـك لأنها لا تـريد الإصلاح الذي اشترطه الله عزّ وجل في الآية الكريمة .

وتشتـد عداوة الحمـاة لزوج ابنتهـا إن كـانت الابنـة على جـانب من الجمال ، أو كانت تملك ولو قدراً يسيراً من الثروة! . .

والأم التي تفعـل ذلك تغضب الله ورسـوله ، إذ من المـأثور عن نبيّ الإسلام ﷺ أنه قال :

« من خَبَّب زوجة امرىء او مملوكه فليس منا » .

أيْ أَنَّ أيَّ إنسان يعمل على إفساد العلاقة التي بين الـزوجة وزوجهـا لا يكون مسلماً ولا مؤمناً بالله تعالى . ومعنى ذلك أن مصيره الخِزي والعـار في الدنيا ، ونار جهنّم في الآخرة .

وخيـر وسيلة للإبقـاء على السعـادة في الحيـاة الـزوجيـة ألا يُـدخـل الزوجان أي إنسانٍ بينهما فيما عسى أن يثور بينهما من خلافات .

إن تدخل الجيران ومن يسمونهم بأصدقاء العائلة ، وتدخل الأهل كثيراً ما يزيد من حدة الخلافات ثم ينتهي الأمر إلى ما يسميه الرسول ﷺ بأبغض الحلال عند الله وهو الطلاق .

وما من شكٍ في أن الزوج هو أولى الناس بالطاعة ، وكلمته نافذة على كلمة أم زوجته بل ونافذة أيضاً على أبيها ، فيما يتعلق بشؤون الزوجية ، وهذا ما يقرره الدين الإسلامي الحنيف .

وقد اهتم الدين الإسلامي اهتماماً بالغاً بطاعة الزوجة في الأمور العاطفية .

والمعروف أن بعض الزوجات يتمنّعن على أزواجهن إذا آوت الواحدة منهن إلى المضجع .

وهناك من الزوجات من تنتهز فرصة حاجة زوجها إليها ليستمتع بها ـ وهي حاجة ملحة وضرورية لدى الكثيرين من الرجال ـ فتنتهز الزوجة هذه الفرصة لكي ترهقه بالطلبات وتكلفه ما لا طاقة له به .

ولقد أثبتت البحوث التي أجراها معهد (غلوب) للإحصاء في الولايات المتحدة الأمريكية أن نسبة كثيرة مما يسمونه بجرائم الجنس كان المجرمون فيها أزواجاً فسدت حياتهم الزوجية بسبب سوء تصرف الزوجات وتمنعهن أو ادعائهنّ التعَبَ والإرهاق ، أو افتعال الخلاف وسوء التفاهم قبل الدخول إلى المضجع .

لذلك فقد كان لرسول الله عليه الصلاة والسلام وصايا عديدة للرجال والنساء منها :

ـ إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت أن تجيء ، لعنتها الملائكة حتى تُصبح .

ومنها أيضاً :

ـ إذا باتت امرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع .

* * *

وليس للمرأة الحق في أن تصوم صيام التطوّع دون إذن زوجها ، وصيام التطوّع هو الذي تصومه المرأة في غير شهر رمضان .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

« لا يحق للمرأة أن تصوم وزوجها شاهدٌ إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه ، وما أنفقت من نفقةٍ عن غير أمره ، فإنه يؤدي إليه شَطره » .

* * *

وعلى الزوجة ألا تنسى معروف زوجها عليها إذا غضبت منه . وبمعنى آخر لا يجوز للزوجة أن ترتكب ما أسماه الرسول ﷺ بمعصية « كفران العشير » .

والعشير هو الزوج الذي يعاشرها وتعاشره ، أي يجب عليها أن تحفظ حق العشرة .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

ـ « إني أريت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، وأريت النار فلم أرَ كاليوم منظراً قط ، ورأيتها أكثر أهلها النساء » .

وسأله سائل :

ـ وَلِمَ يا رسول الله ؟ .

قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام :

ـ بكفرهِنّ ! . .

وسألوا الرسول ﷺ :

- بكفرهن بالله تعالى ؟ . .

قال ﷺ :

- يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط ! . .

ومن أقواله عليه الصلاة والسلام في مدى مسؤولية المرأة في بيت زوجها :

« كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته : والأمير راعٍ والرجل راعٍ على أهل بيته » والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ».

صدق رسول الله الكريم

الفصل الرابع

الجمـال والصبـر

الجمال والصَّبْر

سبق أن ذكرنا أن القرآن الكريم لم يذكر جمال الوجه أو جمال هيئة الإنسان إلا في مناسبات معدودة، وأن خير ألوان الجمال وأحبها إلى النفس، هي التي تعتمد على الجمال الروحي والسجايا الخلقية والمعنوية السامية .

ومن أهمّ السجايا الجميلة التي يجب أن تتصف بها المرأة بوجه عام ، والزوجة بوجه خاص : الصبر .

لقد وردت كلمة « الصبر » ومشتقاتها في القرآن الكريم مائة وثلاث مرات .

كما أن للرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام أحاديث نبوية شريفة عديدة عن مزايا الصبر .

والصبر أمر لازم لاستمرار الكثير من الفضائل التي تزدان بها شخصية الإنسان .

إن الصبر لازم لتحصيل العلم ، ولازم لاستمرار الإنسان على أداء فروضه وواجباته الدينية ، ولازم لبقاء إيمان الإنسان بالله تعالى وازدياد هذا الإيمان عمقاً يوماً بعد يوم .

بل إن الصبر لازم أيضاً لاستمرار الإخلاص والوفاء بين الزوجين المتحابين .

إن المـرأة القليلة الصبر تكـون بطبيعـة الحال كثيـرة التبرم بـالحياة ، دائمـة الشكوى من زوجهـا ، فتتبخر عـاطفتها رويـداً رويـداً حتى تبـدأ في كـراهية الحيـاة معه ؛ ذلـك إن لـم يبدأ هـو في كراهيـة العيش معهـا ، لأن المرأة المتبرمـة العديمـة الصبر تكـون في الغالب سيئـة العشرة ، لا يـطيب للزوج مجـالستهـا ؛ ولا سيمـا أن أيـة حيـاة زوجيـة لا يمكن أن تخلو من الخـلافات في وجهـات النظر والمشكـلات التي تتعلق بـالمـأكـل والملبس والمسكن ومـا إلى ذلك ممـا تقتضيه متـطلّبات الحيـاة ، وممّـا يحتـاج إلى الكثير من الصبر والأناة .

والصبر والحلم توأمان وإن كان يختلف أحدهما عن الآخر . فالصبـر يكـون إزاء المكاره أو النـوائب التي لا قبل لـلإنسان بصـدّها أو بـردّهـا إلا بالصبر ؛ أما الحلم فهو الـرفق والأناة والسيـطرة على نزوة الغضب في وقت يكون فيه الإنسان قادراً على الغضب ورد الإساءة بمثلها أو بأكثر منها .

والصبر على الرغم من مرارته وصفـه الله سبحانـه وتعالى بـالجمال ، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب .

ومن أقواله عزّ وجل عن الصبر :

﴿ إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾(١) .

وقال جلّ شأنه :

● ﴿وبشر الصابرين﴾(٢) .

● ﴿ إن الله مع الصابرين﴾(٣) .

---

(١) سورة الزمر الآية (١٠).
(٢) سورة البقرة الآية ١٥٥ .
(٣) سورة البقرة الآية (١٥٣) .

● ﴿وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾[1].

● ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[2].

● ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[3] .

وهناك آيات قرآنية أخرى عن الصبر .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة عن الصبر :

● « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

● « الصبر نصف الإيمان » .

● « إن النصر مع الصبر » .

● « ما أُعطي أحدٌ عطاء خيراً أوسع من الصبر » .

* * *

والحياة من المستحيل أن تسير على وتيرةٍ واحدة ، فدوام الحال من المحال كما يقولون .

إن كل أسرة مهددة بأزمات مالية ؛ وقد يطول أمد بعض هذه الأزمات أو يقصر ؛ كما أنها قد تشتد أو تخفّ . والمرأة إذا كانت قليلة الصبر إبّان تلك الأزمات قلبت حياة زوجها إلى ما يشبه الجحيم ؛ والمرأة المتبرّمة القليلة الصبر مهما كان حظها عظيماً من الجمال تصبح في عيني زوجها أكثر دمامة من القردة إن هي ضاقت ذرعاً بكل أزمة مالية تمرّ بهما .

وما من شك في أن الصبر هو الركيزة الخلقية الأساسية للقناعة .

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٥) .

(٢) سورة الشورى الآية (٤٣) .

(٣) سورة النحل الآية (١٢٧) .

والقناعة كما يقولون كنز لا يفنى .

لقد قسّم بعض فقهاء المسلمين وفلاسفتهم الأخلاق إلى أخلاقٍ طبيعية توجد في الإنسان بالفطرة ، وإلى أخلاق مكتسبة يمكن ان يتحلّى بها وتصبح جزءاً من سجاياه ويتأتّى ذلك بحسن التربية المنزلية وبما يتلقّاه العاقل من عبرٍ وعظات وهو يتنقّل بين فصول مدرسة الحياة ، إذ أن العاقل من اعتبر واتّعظ بغيره ، ومدرسة الحياة أو مدرسة الأيام والليالي ـ كما يسميها البعض ـ هي خير من يغرس في الإنسان العاقل أحسن الفضائل .

وإذا كان الصبر هو الركيزة الأساسية للقناعة كما قدمنا ؛ فإن الركيزة الأساسية للصبر هي الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى ، والإيمان باليوم الآخر ، وهذا يستتبع الاقتناع الكلي بأن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا حياة الغرور ، وأن كل ما بها من زخرف ومظهر مصيره إلى الزوال .

إذا اقتنعت المرأة اقتناعاً عميقاً بأن كل ما في هذه الحياة ، ما هو إلا بوارق أمل من ورائها أجل ، وأن السعادة ليست في الذهب أو الحرير بل في راحة النفس والضمير ، إذا اقتنعت المرأة بذلك واعتبرت دنياها مزرعةً لآخرتها ؛ فإنها ـ بلا مراء ـ ستجد الصبر من أثمن الفضائل التي تتحلى بها لتنتصر على أحوال الدنيا المتقلبة ، ولتفوز برضاءِ ربها ورضاء ضميرها ورضاء زوجها ورضاء الناس ، بل ورضائها هي عن نفسها .

* * *

إن الحالة النفسية والخلقية التي تكون عليها المرأة ، لها التأثير الواضح على صفاء أو عدم صفاء جمالها .

إن جمال الوجه ليست له مقاييس معينة أو مبادىء متفق عليها ؛ ولكن الحالة النفسية والخلقية التي تكون عليها المرأة تنعكس في نظرة عينيها ، لأن العينين كما يقال هما نافذتا الروح .

والإنسان قد يطمئن أو لا يطمئن إلى نظرة عيني امرأة ما ؛ وهذا أمر لا علاقة له إطلاقاً بجمال هاتين العينين أو عدم جمالهما .

وأخلاق المرأة لا تعكسها عيناها فحسب ، بل إن هناك وجوهاً يرتاح الناظر إليها ويطمئن ، حتى ولو كانت هذه الوجوه قليلة الحظ من الجمال .

* * *

إن المرأة إذا أرادت أن تصقل من جمالِ شخصيتها فعليها أن تُكثر من القراءة والاطلاع . ولا سيما قراءة الكتب الثقافية وما يدعو منها الى تعميق الإيمان بالله تعالى والنظرة الى الحياة نظرة أعمق من تلك النظرة السطحية العابرة التي لا تكترث ولا تبالي إلا بمادّيات الحياة ، وزخرفها الزائف الزائل .

ونسبةٌ كبيرة من النساء يفضّلن الشعر ويملْن إلى قراءته فعليهن بقراءة الأشعار ذات المغزى العميق التي تزيد من شفافية روحها وتجعل نظرتها للحياة الإنسانية أكثر عمقاً وأوفر شمولاً .

إن أشعار (أبي العتاهية) مثلاً من تفاهة الحياة الدنيا وعبرة الموت وفضيلة القناعة تعتبر من أرصن وأجمل الأشعار في هذا الصدد ، وأية امرأة إذا قرأت بعض أبيات شعره وحفظتها وردّدتها على صديقاتها وزميلاتها كان لها أحسن الوقع ، ولا يلبث أن يصبح مغزى ومعنى هذه الأبيات جزءاً مما يسميه بعض الفلاسفة العرب بالأخلاق المكتسبة .

إن كتابنا هذا لا يتّسع بطبيعة الحال لذكر قدر كبير من مثل هذه الأشعار سواء للشاعر (أبي العتاهية) أو (المتنبي) أو غيرهما ، لذلك سنقتصر على ذكر بعض هذه الأبيات . وتوخينا في اختيارنا أن تكون سهلة الألفاظ سلسة الأسلوب .

قال ابو العتاهية يخاطبُ الدنيا ويصف رغبته في التخلّص منها بأن هذه الرغبة

جعلته يزهد فيها وغرست في أعماق نفسه بذور القناعة التي ضربت بجذورها في تلك الأعماق حتى أصبحت شجراً !.

غَرَس التخلّصُ منكِ بين جَوانحي
شَجر القناعةِ والقناعةُ مالي
إن القناعةَ بالكفافِ هي الغِنى
والفقرُ عين الفقرِ في الأموالِ
لمّا حَصَلْتُ على القناعة لم أزَلْ
ملكاً يرى الإكثار كالإقلالِ
وإذا طمعتُ لبِسْت ثوب مَذَلَّةٍ
إن المطامعَ معدنُ الإذلالِ

والمرأة التي تتعمق في فهم أبيات الشعر سالفة الذكر سوف تقتنع فعلاً بأن المطامع هي معدن الإذلال كما قال .

وهناك فارق كبير بين الأطماع والآمال .

إن كلّ إنسان لا يمكنه أن يعيش بلا أمل ، والإنسان لا يخرج من الأمل إلا حين يوافيه الأجل كما يقولون . .

واليأس عدو الحياة ، إذ لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ولكن الإنسان العاقل يجب ألا تلهيه آمال الحياة الدنيا عن التفكير في آخرته ، والتفكير الدائم فيما يفرضه عليه الله سبحانه وتعالى لكي يفوز برضائه عنه في الدنيا وينال ثوابه في دار الخلود ، لأن الدنيا ما هي إلا دار فناء .

وإذا ألهت آمال الدنيا المرأة أو الرجل عن العمل لآخرته انطبق عليه قول الله عزّ وجلّ :

﴿ ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتّعوا ويُلْهِهِمُ الأمل فسوفَ يعلمون ﴾[1].

صدق الله العظيم .

والمرأة ذات الأطماع لا تعرف حد الشّبع لأنها لا تعرف أو لعلها لا تعترف بالقناعة ، فإذا تحقق لها مطلبٌ سارعت إلى اشتهاء مطلب آخر ؛ لأن مطالب ذوي الأطماع تنحصر في الرغبة في الحصول على ما في هذه الدنيا من عرَضٍ ماديّ . وماديّات الحياة لا حصر لها ، وما دامت لا تعرف القناعة ولا تعترف بها فسوف تظل دائماً أبداً تشعر بالضيق والحاجة ، وتحسُد من هم أغنى منها ، وترتسم أمارات التبرّم والتعالي على ملامح وجهها فتطمس جانباً كبيراً ممّا عسى أن يكون عليه من جمال .

وقد أجاد الشاعر (أبو العتاهية) حين طرق هذا الموضوع في أبيات أخرى له فقال :

إن القنوع لزادٌ إن رأيتَ به
كنتَ الغنيَّ وكنت الوافر العِرض
ما بين ميتٍ وبين الحيِّ من صلةٍ
من مات أصبح في بحبوحة الرفض

وقال أيضاً :

إذا قنعت فأنت أغنى من غني
إن الفقير لَكلِّ من لا يقنع
اقنع ولا تُنْكِرْ لربك قدرةً
فالله يخفض من يشاء ويرفع

* * *

---

(١) سورة الحجر الآية (٣).

إن المرأة المتدّينة المؤمنة بالله تعالى وبرسوله تبعث على الاطمئنان وتكون فألاً طيباً لزوجها ولأسرتها .

وقد قال الرسول ﷺ :

« لا تُنكَح المرأة إلا لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فاظفَر بذات الدين تَرِبتْ يداك » .

أي أن الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام أوصى بالزواج من المرأة المتديّنة وفضلها على ذات المال وذات الحسب وذات الحُسنِ والجمال . لأن المرأة المتدينة المؤمنة بالله تجعل الحياة هادئة مطمئنة جميلة ، وتتخذ من حياتها مزرعةً لآخرتها .

ومن أقوال الرسول ﷺ في هذا الصدد أيضاً :

« من تزوج امرأة لعزّها ، لم يزدْه الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحَسَبِها لم يزده إلا دناءةً ، ومن تزوجها لم يُرد بها إلا أن يغضّ بصره ويحصن نفسه ، بارك الله له فيها وبارك لها فيه » . صدق رسول الله الكريم .

والمرأة التي تُشبع عواطف زوجها وتطيعه في الحدود التي أمر بها الله تعالى وبيَّنها رسوله الكريم ، تجعل زوجها بطبيعة الحال مخلصاً لها كل الإخلاص ، فلا تعجبه أية امرأة أخرى حتى ولو كانت تفوق زوجته في جمال الوجه أو في الحسب أو في المال فيغضّ الطرف ويبارك الله له في زوجته كما يبارك لها فيه .

* * *

وأي إنسان سواء أكان رجلاً أم امرأة ، عليه أن يصقل شخصيته دائماً بالعلم والاطلاع كما سبق أن ذكرنا .

إن اطّلاع نساء عصرنا هذا على قصص حياة بعض المسلمات العظيمات ، سوف يعمّق إيمانهن بالله تعالى ، ويجدْن المتعة كلَّ المتعة في حياة تضيئها المبادىء المعنوية القويمة .

لقد لاقت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ في حياتها ما لاقت من شظف العيش والمرض وموت أمها المؤمنة الأولى السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، كما شهدت موت جميع شقيقاتها وموت أبيها الحبيب .

وخير وصف لحياة السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها هو هذان البيتان من الشعر ، وقد قالتهما وهي تبكي بعد أن أخذت حفنةً من تراب قبر الرسول ﷺ فوضعت التراب إزاء أنفها وشمّته ثم قالت وهي تبكي :

ماذا عليّ من شمّ تربة أحمد
أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صُبَّت عليّ مصائبُ لو أنها
صبَّت على الأيام صِرْن لياليا

ثم قالت أيضاً :

فلْيبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مُضر وكل يمانِ
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلّى عليك منزّل القرآن

إن إيمانها بالله سبحانه وتعالى ، وبأن الموت حق على كل حيٍّ لم يتزحزح قيد أنملة رغم المصائب التي صُبَّت عليها ولو أنها صُبَّت على الأيام لسوّدَتْها وجعلتها في سواد الليالي كما قالت .

لقد تزوجت فاطمة من الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهما،

وكانت حين تزوجت في ريعان شبابها ؛ ومن حقها كزوجةٍ شابة أن تتزيّن لزوجها بقلادةٍ أو بقرط وأن تجمل بيتها المتواضع بستر منقوش .

ولكن الرسول ﷺ كان لا يحبّ ذلك لأهله ، وقد روى (محمد بن قيس) قصةً تظهر مدى عظمة فاطمة الروحية وسموّ أخلاقها وذلك حين زارها الرسول ﷺ بعد عودته من أحد أسفاره فوجدها قد وضعت ستراً منقوشاً في بيتها ، كما تزينت بقلادةٍ وقرطين .

وبان الغضب في وجه الرسول ﷺ ولكنه لم يشأ أن يقول لها شيئاً .

إلا أن فاطمة رضي الله عنها كانت بالغة الحساسية ، شفافة الروح ، مرهفة الوجدان ، فأدركت على الفور لماذا غضب أبوها الكريم ، ولم يلبث إلا قليلاً وذهب إلى المسجد .

ونزعت فاطمة رضي الله عنها قلادتها وقرطيها وسترها وسلمت كل ذلك إلى أحد الغلمان وقالت له :

ـ اذهب إلى رسول الله ﷺ وقل له : إن ابنتك تقرأ عليك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله ! .

أي أنها وهبت حُلّيها وسترها لكي تُباع ويتصدق الرسول ﷺ بثمنها على الفقراء ! .

الله اكبر ! . .

ما كل هذا الإيمان العميق بالله وباليوم الآخر ؟ . .

ما هذا الزهد في مظاهر الدنيا الزائفة الزائلة من عروس في ريعان شبابها ! .

* * *

وهناك قصة أخرى عن مدى عظمة السيدة فاطمة الزهراء الروحية

رضي‌الله عنها.

كانت بطبيعتها ضعيفةً نحيلة الجسم ، وكان المرض يعاودها بين آونةٍ وأخرى .

ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بواجباتها المنزلية كطحن الشعير بالرحى الثقيلة في أيام الصيف الحارة وهي ترتدي أخشن الثياب .

وفي أحد الأيام اشتد عليها المرض فزارها أبوها الرسول ﷺ ، وأمسكت بيده الكريمة وقبلتها فقبل هو الآخر يدها كما كان يفعل عند كل لقاء ، وسألها :

ـ كيف تجدينك يا بنية ؟ .

قالت فاطمة في صوت أوهنه المرض :

ـ إني لوجِعَة يا أبتي ! .

ثم أضافت :

ـ وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله ! .

لا إله إلا الله ! .

ابنة خاتم المرسلين وسيد خلق الله أجمعين لا تجد ما تأكله لتقاوم به مرضها ! .

كان المسلمون إبان هذه الفترة يُعانون جميعاً من الفاقة والجدب ، وقد شكت زوجات النبيّ من ذلك، فأنزل الله سبحانه وتعالى جبريل بآيتين كريمتين وفيهما يقول عزّ وجلّ لرسوله ﷺ :

﴿ يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتنَّ تُرِدْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْن أُمتّعكنّ وأسرِّحْكنّ سراحاً جميلاً * وإن كنتُنّ تُرِدْن الله ورسوله

والـدار الآخرة فـإن الله أعدّ للمحسنـات منكنّ أجراً عـظيمـاً ﴾ [1].

صـدق الله العظيم .

وقد خيّر الرسول ﷺ زوجـاته بين الـدنيا وزينتهـا وبين الآخرة ـ كمـا أمره الله تعالى ـ ففضلن حياة الزهد معه .

وكان الرسول ﷺ قد هجر زوجاته شهراً ، فرأى بعد أن نـزل جبريـل عليه السلام بـالآيتين الكريمتين سـالفتي الذكـر أن يبدأ أولاً بتخييـر السيدة عائشة رضي الله عنها فما كادت تراه حتى صاحت في فرحة ولهفة .

ـ يا رسول الله ! . إنـك كنت قد أقسمت أن لا تـدخل علينـا شهراً! . وإنما جئت بعد تسع وعشرين ليلة أعدّها عدّاً ! .

الله أكبر! . مرة أخرى! . .

إن عائشة كانت تعد غياب زوجها الحبيب عنها بالليلة ! .

كانت تفعل ذلك رغم حياة الشظف التي كانت تحياها! . . ورغم أنـه يكبرها بسنوات عديدة! . ورغم أنه كان متزوجاً من غيرها[2] .

وقال لها الرسول ﷺ :

ـ الشهر تسع وعشرون .

وكان ذلك الشهر فعلاً تسعاً وعشرين ليلة .

وحين خيّرها الرسول ﷺ طلب منهـا أن تأخـذ رأي والديهـا في ذلك لصغر سنها وللصداقة الحميمة التي كانت تربط بينه وبين أبي بكـر الصديق رضي الله عنه .

---

(١) سورة الاحزاب الآيتان ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) راجـع تفصيـلات ذلـك في كتـاب (عـائشـة بنت الصـديق) أحـد كتب سلـسلة « عـظمـاء الاسلام » لنفس المؤلف ونفس الناشر .

ولكن عـائشة رضي الله عنهـا نظرت إلى الـرسول ﷺ وقـد اغرورقت عيناها بالدموع وقالت له :

ـ أفيك استأمر أبويّ يا رسول الله ؟ . .

واختـارته ! اختـارت الحياة معـه تتحمل شـظف العيش لتفوز بحسن ثواب الآخرة . .

* * *

ذكرت هذه القصة عن زوجات الـرسول ﷺ حتى لا يحسب أحـد من القـراء أنه ـ لا قـدّر الله ـ كان يبخـل على فلذة كبده فـاطمة الـزهراء رضي الله عنها .

لقد كانت الفاقة عامة في ذلك الوقت .

كـان نوعـاً من الاختبار أراد الله سبحـانه وتعـالى أن يختبر ويبتلي بـه المسلمين وقوة إيمانهم .

وقال الأب الرحيم لابنته الطاهرة :

ـ يا بنية ! . أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ .

وفي مرة أخرى رآها وهي تطحن بـالرحى والعـرق يتصبب منها فقـال لها :

ـ تجرّعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة .

* * *

وفي حياة السيدات خديجة بنت خويلد وآمنة بنت وهب وغيـرهما من المسلمات العظيمات الكثير من العبر والعظات لنساء عصرنا هذا[1] .

---

(١) راجع كل مـا يتعلق بهؤلاء العظيمـات في الكتب التي صدرت عنهن من سلسلة « عـظمـاء الإسلام » لنفس المؤلف ونفس الناشر .

وعلى الرجل ألا يقسو على المرأة إذ هي كما قال الرسول ﷺ خلقت من ضلع عوجاء فإذا حرص الرجل على تمام تقويمها فقد تنكسر وإذا عاملها برفق وداراها يستمتع بها .

ومن أقوال الرسول ﷺ :

« كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

وكان الرسول يدلل عائشة ويناديها (يا حميراء) لأنها كانت بيضاء كأبيها فإذا تأثرت من شيء نفر الدم إلى وجهها فصار محمراً .

وعائشة من شدة حبها للرسول ﷺ ظلت تتباهى بعد موته بحبها له ، وإذا تحدثت عنه تقول :

« كان حبيبي رسول الله يفعل كذا أو يقول كذا » .

وكانت تتباهى بحياة الشظف التي كانت تعيشها مع سيد خلق الله .

ومن أقوالها في هذا الصدد :

« ما شبع آل محمد من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله تعالى » .

أي أن محمداً ﷺ وزوجاته لم يأكلوا طوال حياته الشريفة خبزاً مأدوماً أي خبزاً باللحم أو بالخضرة أو بالحساء أو كالثريد ثلاثة أيام في إثر بعضها حتى لحق بالرفيق الأعلى ! .

وكانت تقول إن طعامها مع الرسول كان في كثير من الأحيان يكون مقصوراً على « الأسودين » وتقصد بهما التمر الرخيص والخبز الشديد السمار المصنوع من الشعير .

* * *

والرجل الذي يحترم نفسه ، يجب عليه أيضاً أن يحترم زوجته ويحترم آدميتها ويحرص على ألا يجرح كرامتها .

وبذلك يمكنه أن يجعلها تحتفظ برونقها وجمالها وحيويّتها أطول مدة ممكنة .

ولقد سقنا بعض الأمثلة عن لطف الرسول ﷺ ورفقه بزوجاته ، ومرت بنا قصة تحكيم أبي بكر الصديق في الخلاف الذي كان بين السيدة عائشة وبين زوجها الرسول ﷺ .

ومما ذكره (البخاري) في هذا الشأن إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في أحد الأيام لعائشة :

« إني لأعلم اذا كنت عني راضيةً ، وإذا كنتِ عليّ غضبى » .

فسألته عائشة :

ـ من أين ؟ . من أين تعرف ذلك ؟ .

قال صلوات الله وسلامه عليه وقد ازداد إشراق وجهه الكريم بابتسامته الوضيئة :

ـ إذا كنت غضبى ، قلت لا وربِّ ابراهيم ، أما إذا كنت عني راضيةً فإنك تقولين لا وربِّ محمدٍ .

أبعد هذا تدليل للزوجة ؟ .

أبعد هذا عطف ورقة وحنان ؟ .

ولكن! . ليتأمل القراء معي ماذا كان رد أحبِّ زوجات الرسول إلى قلبه ! .

إن ردّها يدل دلالةً قاطعةً على أن حب الرسول لها لم يكن سببه

جمالها أو صغر سنها كما يقول بعض المستشرقين وبعض الذين في قلوبهم مرض إذا تحدثوا عن عائشة رضي الله عنها .

إن ردها على زوجها بعد هذا القول الرقيق الذي سمعته من خاتم المرسلين؛ يظهر لنا عظمة وعمق حبها له ، كما يظهر لنا في نفس الوقت ما حباها الله تعالى به من ذكاء وسرعة خاطر .

قالت له عائشة :

- والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك !.

سبحان الله ! . .

إنه ردٌّ لا يحتاج منا إلى أي تعليق . .

■ ■ ■

الفصل الخامس

المرأة المسلمة
وحركات تحرر المرأة

المرأة المسلمة
وحركات تحرر المرأة

طلع علينا الغرب منذ مطلع القرن العشرين بحركات قد تكون متوافقة مع أرائه وأفكاره ومعتقداته ، وقد تكون لها أسباباً في أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية ونهضته الصناعية وخروج المرأة إلى المصنع عاملة جنباً إلى جنب مع الرجل.

لكن هذه الحركات تختلف في مفاهيمها كل الاختلاف وتبتعد كل البعد عن مفاهيمنا وأخلاقنا ومعتقداتنا وديننا الحنيف الذي اختاره الله لنا وشرعه الذي اشترع لنا ألا وهي حركات تحرر المرأة .

لقد طرحت حركات تحرر المرأة في الغرب مفاهيم عن المساواة في الحقوق والواجبات بين المرأة والرجل كان أكثرها صدى مشوهاً لما منحه الله من حقوق للمرأة في الإسلام إذ أضاف إليها ما لا يمكن قبول إضافته لاختلاف التركيب البنيوي والنفسي والتوزيع الوظائفي الاجتماعي بين المرأة والرجل.

قد يقول قائل إن بعض النساء يقمن بأعمال صعبة ويتحملن مسؤوليات تحتاج لأقوى الرجال .

ونحن ها هنا نقول رداً على هذا القائل ، إن في ثنايا قولك الرد الفصل عليك ، فإنك تقول بعض النساء ، وهذا يعني ظاهرة فردية أو نادرة

وقليلة الوقوع ولا يمكن للظاهرة أن تأخذ حيز القاعدة العامة وإلا فإننا نبتعد عن بديهيات المنطق والعلم .

والمؤسف ان هـذه الحركـات قد وجـدت من يستوردهـا إلى بـلادنـا وينشرها ويدعو إليها وإن ظلَّت في دعوتها الظاهرة أبعد عما دعت إليه هـذه الحركات في الغرب .

لقد ساوى الإسلام بين الرجـل والمرأة في الحقـوق والواجبـات التي يتشاركان في حمل مسؤولياتها ولكنه حدد حقوقـاً مختلفة في النـواحي التي يتحملان فيها مسؤوليات مختلفة في النوع أو الدرجة .

الميراث والمهر :

إن أول نقطة يهاجمنـا فيها هؤلاء الـدعاة هي أن الاسـلام قد أعـطى للمرأة في الميراث نصف حصة الرجل .

إنهم في قـولهم هذا ينسـون ان الإسلام جعـل مسؤوليـة النفقـة على المـرأة على عاتق الـرجل ، أبـاً وأخـاً وزوجـاً وعمـاً وابن عمٍ ، أيهم كـان موجوداً ولـم يجعلها مسؤولة عن النفقـة على أبنائهـا وبناتهـا حتى ولو كـانت غنية كما جعل لها مهراً يدفعه الرجـل مؤجلاً ومعجـلاً تنفق منه على نفسهـا وحاجاتها الضرورية وهذا المهر ليس ثمناً فالمرأة ليست متاعاً للبيـع والشراء كما يحاولون تصوير هذا المهر جهلاً وانحيازاً وعداءً لـلاسلام وأهله ، إنمـا الإسلام حينما فرض المهر إنما جعله واجباً اجتمـاعياً يحمـل صفة التكـافل الاجتماعي بين المرأة والرجل في سبيـل بناء أسـرة متماسكـة ، يحمل كـل طـرف فيها مسؤوليـة أمـور محـددة ويحمـلان معـاً مسؤوليـة تـربيـة الابنـاء وإعدادهم للمستقبل رجـالاً ونساءاً قـادرين على متابعـة مسيرة المجتمـع ، المسيرة الصحيحة الصالحة .

أمـا في الغرب فقـد كانت المـرأة ، ومـا زالت في بعض مجتمعـات

الغرب كذلك ، ملزمة بتقديم ما يسمونه « الدوطة » وهي نوع من المهر تقدمه المرأة للرجل كي يتزوجها ومن لم يكن لديها هذه الامكانية كان حظها في الزواج قليلاً .

فإذا أضفنا إلى ذلك قلة حظها من الجمال ، كان المعنى الناتج من ذلك حكماً بالعنوسة لا مرد له .

أما إذا كان لها حظ من الجمال وليس لها نصيب من المال أو الارض كان عليها أن تقنع بالزواج إما من رجل يكبرها سناً بفارق كبير أو يقل عنها كثيراً في الدرجة الاجتماعية وفي كلا الحالين فالظلم الواقع بها أكيد وثابت .

وفي بعض الحالات النادرة عليها أن تنتظر لعبة الحظ والمصادفة التي قد توقع في حبها رجلاً يناسبها مما يفرض عليها بالتالي التبذل له لكي توقعه في حبائلها مما يخرجها أيضاً من موقعها الانساني الى الدرك الحيواني .

وإلى الآن فإن بعض مجتمعات الغرب تفرض ملكية المرأة لمنزل مؤثث كي يمكنها الزواج والزوج لا يسألها من أين لها هذا وكيف حصلت عليه ومن أي السبل جاءت بماله ولا يأبه لعذريتها أو عدمه أو لعلاقاتها وما فعلته قبل الزواج مما يضعها في منزلة العبودية في اضطرارها أحياناً لبيع نفسها لكل طالب لتأمين هذا البيت وكل هذا تحت شعار المساواة والحرية فأين هي المساواة وأين هي الحرية بالله عليكم ؟ .

وفي المجتمعات الغربية الحديثة التي تخلّت عن هذا الغرض ، فإنها تحمل المرأة نصف مصروف المنزل، دار الزوجية ، ونصف المسؤولية المالية عن الاولاد فما رأيك رعاك الله في أسرة ، زوج وزوجة وأبناء يجلسون في مطعم لتناول غدائهم وبعد تناول الغداء ، يدفع كل منهما ثمن طعامه ويتقاسمان ثمن طعام الاولاد .

أو رجل وزوجته يذهبان لشراء الملابس ، فيشتري هو ما يريد لأنه ميسور وتشتري هي القليل في حدود ما تملك فإذا أراد أن يشتري لها شيئاً تحتاجه كان ذلك على سبيل الهدية ؟. أين التكافل ، أين امتزاج الأرواح والنفوس في كيان واحد متكامل ؟ .

الشهادة :

ويقولون أيضاً إن الإسلام يجعل شهادة المرأة نصف شهادة فشهادة امرأتين معادلة لشهادة رجل واحد .

إن إطلاق الأحكام جزافاً هكذا يدل على جهل كبير بحقيقة التشريع الاسلامي ثم اصدار الاحكام بناءً على هذا الجهل وليس بناءً على معرفة حقيقية وصحيحة .

إن شهادة المرأة نصف شهادة في الأمور التي ليست من اهتمامها المباشر وبالتالي فإنها عرضة لنسيانها أو نسيان بعض تفاصيلها انطلاقاً من أهمالها لها . كأمور التجارة وما شابه .

أما في الأمور التي تعتبر من اختصاصات المرأة أو من دائرة اهتمامها فإن شهادة المرأة تعتبر شهادة كاملة وأساسية بينما شهادة الرجل فيها لا يستند اليها كثيراً إلا في حال عدم وجود شهود من النسوة ، كأمور الرضاع وإخوة الرضاع وما شابه ذلك من الأمور التي تحدث في الكثير من الأحيان بمعزل عن الرجال وتبقى في ذاكرة المرأة اثبت من غيرها .

ثم إن القرآن الكريم قد حدد أسباب معادلة شهادة امرأتين بشهادة رجل واحدٍ، فلم يكن ذلك انتقاصاً من كرامة المرأة أو تحقيراً لها أو عدم تقدير لمكانتها كإنسان حي عليه نفس الواجبات تجاه نفسه وتجاه رب العالمين ، إذ ذكر أن السبب هو النسيان ، فإذا نسيت إحداهما ذكّرتها الاخرى .

الطـلاق :

لقد عاب الغرب ولفترة طويلة مسألة الطلاق على المسلمين ، انطلاقاً من مبدأ أبدية الزواج في ديانات الغرب ، ولكن إذا تطلعنا للصراعات الطويلة والمريرة التي خاضتها المرأة في الغرب والرجل أيضاً والمعارك الفكرية والسياسية والاجتماعية وآثارها النفسية الرهيبة على كل إنسان حتى توصلوا إلى إقرار الطلاق فعادوا إلى النقطة التي انطلقوا منها وناقضوا أنفسهم بأنفسهم ، لقد عابوا على الاسلام امراً ، صارعوا قياداتهم الروحية والزمنية طويلاً حتى حصلوا عليه .

أما في الإسلام فإن الله قد اعطانا هذا الحق دون طلب منا ، لأنه هو خالق الانسان فهو أدرى بحقوقه وما يلزمه أكثر منه بملايين المرات .

ولكنهم رغم ذلك ما يزالون يكررون بغضاءهم وعداوتهم لشريعة الله بقولهمإن الإسلام قد منح هذا الحق للرجل وحده ولم يمنحه للمرأة .

وهذا أيضاً منافٍ للحقيقة والواقع صحيح إن الإسلام قد وضع العصمة بيد الرجل ، ولكنه وضعها كذلك انطلاقاً من أسباب إذا تقصيناها وجدنا الباطل لا يأتيها من أمامها ولا من خلفها ولا من بين يديها .

إن المرأة انطلاقاً من عاطفتها وأحاسيسها المرهفة وعدم تحملها لمسؤولية الأسرة كما يتحملها الرجل ، قد تثور إما بدافع الغيرة المحضة ، أو لأي سبب عاطفي آخر فتلجأ للطلاق وتدمر حياتها وحياة أسرتها وأطفالها دون حسابٍ للعواقب ولما قد يصيبها بعد هذا الطلاق .

أما الرجل فيلجأ إلى عقله ويحسب ألف حساب قبل أن يقدم على خطوته هذه ويحاول شتىّ الحلول قبل اللجوء أخيراً وبعد استنفاد كل الوسائل إلى أبغض الحلال عند الله ألاّ وهو الطلاق .

ولكن رغم هذا فإن الإسلام قد كفل للمرأة حق طلب الطلاق

والحصول عليه لأسباب يفرضها العقل السليم والمنطق الصحيح وأجاز للحاكم أن يعطيها هذا الحق إذا توافرت الأسباب .

وبعد الطلاق :

نرى الآن في المجتمعات الغربية وخصوصاً الولايات المتحدة الامريكية أن الشارع قد كفل للمرأة حقاً صارعت كثيراً حتى حصلت عليه ألا وهو حق النفقة بينما الإسلام قد اعطاها هذا الحق دون منة ودون طلبٍ منها ، فما أعظم رسالة السماء .

تعدد الزوجات:

ينعون أيضاً على المسلمين اعطاء الرجل حق الزواج بأكثر من واحدة .

إن نظرة واحدة إلى المجتمع الغربي تكفي ، وليس للغرب وحده بل حتى في مجتمعاتنا التي أقرت وفرضت مبدأ الزواج بواحدة ، كافية لنرى عواقب هذا المبدأ ، فالمرأة التي لا تجد زوجاً ، هل يمكنها أن تبقى بغير رجل ، هل يمكنها أن تبقى على حرمانها الجنسي إلى الابد ؟ .

غير ممكن طبعاً ، إذن فهي تلجأ إلى الزنى وإلى اقامة علاقة غير شرعية ومشبوهة مع رجل ، أي رجل يعجبها ، فإذا تركها أو حصل خلاف بينهما لجأت إلى رجل آخر وهكذا دواليك .

ترى من حول المرأة الى سلعة أو متاع يباع ويشرى، هل الاسلام الذي كفل لها حقها في الزواج ولو بمشاركة رجل مع امرأة اخرى أو السماح لها بالتنقل من رجل إلى آخر ؟ .

وهذا الرجل الآخر ، أليس متزوجاً ؟ إذن فهي شريكة في نصف رجل ودون حقوق الزوجة وكرامتها فهي عرضة للترك والإهمال ، وبالإضافة

إلى ذلك، فإذا كبرت في السن فلن تجد بجانبها لا زوجاً ولا ابناً يقف إلى جانبها لأن الرجال طالما أمامهم مجال الاختيار فلن يختاروا العجوز مع وجود الشابات .

وحتى في البلاد التي سمحت لها بالانجاب سفاحاً ، فمن ادراه من هو والده ولو عرفت فمن يدرينا هل سيقيم هذا الولد ، وطالما هذا الجو من الإباحية مسيطراً ، علاقة جنسية مع أخته من أبيه دون علمٍ منه أو منها بأنها أخته وأنه أخوها ؟ .

أليس الافضل لها ولكرامتها ولكرامة ابنائها وبناتها ان يكونوا معروفي الاب والام فلا يقعون في المحظور ولا يسمون أيضاً أبناء طبيعيين تمييزاً له من الابناء الشرعيين وفي نفس الوقت يخسرون حقهم في ميراث أبيهم إلا إذا أراد هو أن يخصهم بشيء .

الحرية الجنسية :

وآخر الموبقات التي طلع بها الغرب علينا هي مسألة الحرية الجنسية للرجل والمرأة . أي أن للمرأة عزباء أو متزوجة الحق بإقامة علاقات جنسية مع أي رجل تريده ويريدها ساعة تريد ولا يحق للزوج الاعتراض على ذلك .

لقد حولوا المرأة إلى عاهرة فأذلُّوها مدعين اعطاءها حقوقها والمحافظة على كرامتها .

أي كرامة للمرأة المتنقلة بين أيدي الرجال المتداولة بينهم . إن الأمة المستعبدة لا ترضى لنفسها هذا المصير . أن تخرج كل مساءٍ كقطة تربت في الشارع باحثة عن ذكر ، أين انسانيتها ؟.

إن المرأة عندما تقيم علاقة جنسية مع رجل غير زوجها تتحطم من

الداخل نفسياً وينكسر في داخلها الحياء والاحترام .

ومتى أقامت المرأة علاقة غير شرعية واحدة هانت عليها كرامتها وتركز اهتمامها على الجنس بدل اهتمامها بأمور انسانية اسمى وبالتالي أصبحت ملاقاتها لرجل ثالث ورابع وعاشر مسألة تحصيل حاصل لا تهابها ولا تخشى الله ولا الزوج ولا الكرامة .

إن الحرية الجنسية التي يدعون اليها إنما هي تحويل للمجتمع الانساني الذي اجتباه الله ورفعه فوق سائر مخلوقاته إلى قطيع من ذكور وإناث بهيمية لا هم لها إلا اشباع شهواتها وتحويل اهتمامات البشر من الامور الانسانية السامية الى أمور بهيمية محضة ، والمرأة التي ترضى لنفسها هذا الدرك الادنى سوف تمارسه سواء أعطاها القانون هذا الحق أو لم يعطها إنما في حالة المنع ستحاذر اكثر .

ثم ، ومن الجهة الاخرى فأي جيل سيأتينا من هذه الحرية الجنسية وأي أبناء ، أي بنات ، ومن سيكون ابن من أو بنت من ، وأخ من أو أخت من ؟

لقد ضاعت الطاسة .

إنها سدوم وعمورة من جديد ولينتظروا فإنا معهم منتظرون ونحن مطمئنون إلى أن غضب الله سيحيق بهم ، ويكفيهم خزياً أنهم حولوا أنفسهم وبرضائهم الى بهائم تركض خلف بعضها لا فرق بينها وبين البهائم المتروكة في الشارع أو في الغابات وإن موعدهم الآخرة فإن ربك لا يخلف الميعاد .

وقد بدأ عقابهم ، فما الامراض الجنسية المستشرية بينهم والمستعصية على العلاج والتي تنتهي بصاحبها الى الموت كالهربس

والايدز إلا البداية وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، وهؤلاء ظالمي أنفسهم برأنا الله منهم أجمعين .

إن تلامذة الغرب ودعاته بين ظهرانينا إلى هذه الدعوات المشبوهة ، إما مستأجرون لاعداء أمتنا يريدون تحطيمها كما حطموا الغرب ، إلا وهم اليهود الصهاينة ، أو ضالين قد اشتراهم الشيطان وساء سبيلاً ، فمن يرضى منهم لاخته أو لأمه أو لزوجته هذه الحرية الجنسية هو إنسان بلا كرامة .

وحديث الرسول عن هؤلاء صريح واضح ، فمن الثلاثة الذين يدخلون النار مؤبدين فيها بل أولهم هو الديوث ، أي الذي تزني زوجته ويرضى ويسكت ويقبل بهذا الزنى وهناك واقعة في التاريخ الاسلامي حول أحد هؤلاء .

جاء أحدهم إلى الامام علي بن أبي طالب رضي الله عَنْهُ وكرم وجهه فقال :

- زوجتي تزني .

قال عليه السلام : اشهد عليها وأقم عليها الحد (حد الزنى ، الرجم) .

قال الرجل : أحبها .

قال عليه السلام : طلقها .

قال : أحبها .
وكرر عليه عدة مرات وهو يكرر احبها .

عندها أخرج عليه السلام سيفه من جرابه وقطع رأسه فوقعت نقطة دم على ثوبه فجاء بمقص وقصها .

فقيل له عليه السلام ، لماذا قطعتها وكان بامكانك أن تغسلها ؟ .

قال : لأن دم الديوث لا يطهر أبداً .

يكفينا أن نطالع المجلات التي تتحدث عن جمال المرأة وما تنشره من صور داعرة ، ومواد تجميل يقال في الاعلان عنها انها تجعل المرأة محط انظار الرجال ، يكفينا ذلك لنفهم أن دعوتهم وحديثهم ليس عن جمال المرأة إنما دعوة إلى العهر والفسق والفجور ، نجانا الله منه .

إن جمال المرأة وزينتها إنما هي لمن أحله الله شرعاً بعلاً وزوجاً لها وإلا صارت مثلها مثل بائعة الهوى .

إن ما يدعون إليه من التجميل ليس أكثر من تزيين السلعة لبيعها إلى أول الشارين ومن ترتضي لنفسها أن تكون سلعة تتداولها الأيدي فإن الطريق امامها .

أما من ترفض لنفسها هذا المصير ، وتحترم انسانيتها وكرامتها فان الله قد أوضح السبيل الى ذلك ومن لديه عقل فليعقل ومن له عينان فلينظر وسيعلم الله الذين اتقوا وسيعلم الظالمون .

الفصل السادس

أوصاف النساء
وأخبارهن

أوصاف النساء واخبارهن

قال معاوية بن أبي سفيان ـ وكان واليا على دمشق ـ لصعصعة وهو من المشاهير في علم انساب العرب : أي النساء أحب اليك ؟ .

قال صعصعة : المؤاتية لك فيما تهوى .

قال معاوية : فأيهن أبغض اليك؟ .

قال صعصعة : أبعدهن لما ترضى .

قال معاوية : هذا النقد العاجل؟ .

فقال صعصعة : بالميزان العادل .

وسئل أعرابي عن النساء ، وكان كثير الاهتمام بهن ، فقال : أفضل النساء أطولهن اذا قامت ، وأعظمهن إذا قعدت وأصدقهن اذا قالت ، التي إذا غضبت حلمت ، وإذا ضحكت تبسمت ، وإذا صنعت شيئاً جودت ، التي تطيع زوجها ، وتلزم بيتها ، العزيزة في قومها ، الذليلة في نفسها ، الولود ، التي كل أمرها محمود .

ويروى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خطب امرأة من بني كلب ، وهي من كبريات قبائل العرب ، فبعث عائشة رضي الله عنها تنظر إليها ، فقال لها (ﷺ) : كيف رأيتها ؟ .

قالت : ما رأيت طائلاً .

قال (ص) : لقد رأيت طائلاً ، ولقد رأيت حالاً تجدينها حتى اقشعرت كل شعرة فيكِ .

فقالت : ما دونكَ ستر يا رسول الله .

قال الأصمعي : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب .

وذكر أن معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم بمجلس كان له بدمشق على قارعة الطريق ، وكان المجلس مفتح الجوانب لدخول النسيم فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه ، إذ نظر الى رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتأمله معاوية ثم قال لجلسائه : لم يخلق الله ممن احتاج الى نفسه في مثل هذا اليوم ؛

ثم قال : يا غلام سر اليه واكشف عن حاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيراً لاغنينَّه ، ولئن كان شاكياً لانصفنَّه ، ولئن كان مظلوماً لأنصرنَّه ، ولئن كان غنياً لأفقرنَّه . فخرج اليه الغلام مستقبلاً ، فسلَّم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال له : ممن الرجل ؟ .

قال : سيدي أنا رجل أعرابي من بني عذرة ، أقبلت الى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلامة نزلت بي من بعض عمَّاله .

فقال له الغلام : أصبحت يا أعرابي . ثم سار به حتى وقف بين يديه ، فسلم عليه بالخلافة ثم أنشأ يقول :

معاوي ،يا ذا العلم والحلم والفضل
ويا ذا الندى والجود والنايل الجزل
أتيتك لمّا ضاق في الأرض مذهبي
فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل

وجُد لي بانصاف من الجائر الذي
شــواني شيـاً كــان أيســره قتلي
سباني سعدى ، وانبرى لخصومتي
وجــار ولم يعــدل وأغصبني أهلي
قصـدتُ، لأرجـو نفعــه فـأثــابني
بسجن وأنـواع العذاب مـع الكبـل
وهـم بقـتلي ، غـيــر أنَّ مـنيـتـي
تأبَّت،ولمأستكملالرزقمـنأجلي
أغـثـنـي جــزاك الله عـنـي جـنــة
فـقدطارمنوجدبسُعدىلهـاعقلي

فلمـا فرغ من شعـره ، قال لـه معـاويـة : يـا اعـرابي إني أراك تشتكي عاملاً من عمالنا ولم تسمه لنا ! .

قـال الاعرابي : أصلح الله أميـر المؤمنين ، هو والله ابن عمـك مروان بن الحكم ، عامل المدينة .

قال معاوية : وما قصتك معه يا أعرابي ؟ .

قـال : أصلح الله الامير ، كـانت لي بنت عم ، خطبتهـا إلى أبيها ، فـزوجني منها ، وكنت كلفـاً بها لمـا كانت فيـه من كمال جمـالهـا وعقلهـا والقرابة ، فبقيت معها يا أمير المؤمنين في أصلح حال وأنعم بـال ، مسروراً زمـانـاً ، قـرير العين . وكـان لي قطيـع من الإبل والأغنـام ، فكنت أعولهـا ونفسي بهـا . فدارت عليهـا أقضية الله وحـوادث الدهـر ، فـوقـع فيهـا داء فذهبت بقدرة الله ، فبقيت لا أملك شيئاً ، وصرت مهيناً مفكراً ، وقد ذهب عقلي ، وساءت حالي ، وصـرت ثقلاً على وجـه الارض ، فلما بلغ ذلـك أباها ، حال بيني وبينها ، وأنكرني وجحدني وطـردني ، ودفعها عني . فلم

أقدر لنفسي بحيلة ولا نصرة ، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكيا بعمي ، فبعث إليه ، فلما وقف بين يديه ، قال له مروان : يا أيها الرجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته ؟ .

قال : أصلح الله الامير ، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط .

قلت أنا : أصلح الله الامير ، أنا راضٍ بالجارية ، فان رأى الامير أن يبعث اليها ويسمع منها ما تقول ؟ .

فبعث اليها فأتت الجارية مسرعة ، فلما وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها ، وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان ، فصار لي يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني ، وأمر بي إلى السجن .

فبقيت كأني خررت من السماء في مكان سحيق ، ثم قال لأبيها بعدي : هل لك أن تزوجها مني وانقدك ألف دينار ، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهم تنتفع بها ، وأنا أضمن طلاقها ؟ .

فقال له أبوها : إن أنت فعلت ذلك ، زوجتها منك .

فلما كان من الغد بعث إليّ ، فلما أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان ، وقال لي :

ـ يا أعرابي ، طَلّق سعدى .

فقلت : لا أفعل .

فأمر بضربي ثم ردّني إلى السجن .

فلما كان اليوم الثاني ، قال : عليَّ بالأعرابي .

فلما وقفت بين يديه قال : طَلّق سعدى .

فقلت : لا أفعل .

فَسَلَّط عليَّ يا أمير المؤمنين خدامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحد على وصفه ، ثم أمر بي إلى سجن .

فلما كان باليوم الثالث قال : عليَّ بالأعرابي .

وعندما وقفت بين يديه قال : عليَّ بالسيف والنطع .

وأحضر السياف ثم قال : يا أعرابي وجلالة ربي ، وكرامة والدي لئن لم تطلق سعدى لأفرقن بين جسدك وموضع لسانك .

فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة واحدة على طلاق السنَّة ، ثم أمر بي إلى السجن ، فحبسني فيه حتى تمت عدَّتُها ، ثم تزوجها ، ودخل عليها ثم اطلقني ، فأتيتك مستغيثاً ، قد رجوت عدلك وانصافك ، فارحمني يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد أجهدني الأرق ، وأذابني القلق ، وبقيت في حبها بلا عقل .

ثم انتحب حتى كادت نفسه تفيض وأنشأ يقول :

في القلب مني نارُ والنارُ فيه الدمارُ
والجسم مني سقيم فيه الطبيب يحارُ
والعين تهطل دمعاً فدمعها مدرارُ
حملت منه عظيماً فما عليه اصطبارُ
فليس ليلي ليلٌ ولا نهاري نهارُ
فارحم كئيباً حزيناً فؤاده مستطارُ
اردد عليَّ سعادي يثيبك الجبارُ

ثم خر مغشياً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنه قد صعق به .

وكان معاوية في ذلك الوقت متكئاً ، فلما نظر إليه قد سقط بين يديه قام ثم جلس . وقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اعتدى والله مروان بن الحكم ضراراً في حدود الدين ، واحساراً في حرم المسلمين .

ثم قال : والله يا أعرابي لقد اتيتني بحديث ما سمعت بمثله قط .

ثم قال : يا غلام عليَّ بدواة وقرطاس ، فكتب إلى مروان : « أما بعد ، فإنه بلغني عنك أنك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين ، وانتهكت حرمة لرجل من المسلمين . وإنما ينبغي لمن كان والياً على كورة أو اقليم أن يغض بصره وشهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، وإنما الوالي كالراعي لغنمه ، فإذا رفق بها بقيت معه ، وإذا كان لها ذئباً فمن يحوطها بعده » .

ثم كتب إليه بهذه الأبيات :

وليت، ويحك أمراً لست تحكمه
فاستغفر الله من فعل امرىء زاني

قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ
مع القراطيس تمثالاً وفرقانِ

حتى أتانا الفتى العذري منتحباً
يشكو إلينا ببث ثمَّ أحزان

أعطي الإله يميناً لا أكفرها
حقاً وأبرأ من ديني وديانـي

إن أنت خالفتني فيما كتبت به
لاجعلنك لحماً بين عقباني

طَلِّق سعاد وعجلها مجهزة
مع الكميتِ ومع نصر بن ذبيان

فما سمعت ، كما بلغت في بشر
ولا كفعلك حقاً فعل إنسانِ

فـاختـر لنفسـك إمـا أن تجـود بهـا
أو أن تـلاقي المنـايـا بين أكفـان

ثم ختم الكتاب .

وقال : علي بنصر بن ذبيان والكميت صاحبي البريد .

فلما وقفا بين يديه قال : اخرجا بهذا الكتـاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلا بيده .

قال فخرجا بالكتاب حتى وردا به عليه ، فسلما ، ثم ناولاه الكتاب .

وجعل مروان يقرأه ويردده ، ثم قام ودخل على سعدى وهو باكٍ ،

فلما نظرت إليه قالت له : سيدي ما الذي يبكيك؟

قال : كتاب أمير المؤمنين ، ورد علي في أمرك ، يأمرني فيـه أن أطلقك وأجهـزك وأبعث بك إليـه ، وكنت أود أن يتركني معـكِ حولين ثم يقتلني ، فكان ذلك أحب إليَّ . فطلقها وجهزها ثم كتب إلى معاوية بهذه الأبيات :

لا تـعـجـلـنَّ أمـير المؤمـنـين فـقـد
أوفي بـنـذرك في رفـق وإحـسـان
ومـا ركـبت حـرامـاً حـين أعـجبـني
فـكيـف أدعى بـاسـم الخـائن الـزاني
أعـذر فـإنـك لـو أبصـرتهـا لجـرت
منـك الامـاقي عـلى أمثـال إنسـان
فسـوف يـأتيـك شـمس لا يعـادلهـا
عـنـد الخـليـفـة إنس لا ولا جـان
لـولا الخـليفـة مـا طـلقـتهـا أبـداً
حـتى أُضَـمَّـن في لحـد وأكـفـان

علـى سـعـادٍ سـلامٌ مـن فـتـى قَـلِقٍ
قـد خَـلَّفَـتْـهُ بـأوصـابٍ وأحـزانِ.

ثم دفعه إليهما ، ودفع الجارية على الصفة التي حُدِّث له .

فلما وردا على معاوية فك كتابه وقرأ أبياته ثم قال : والله لقد أحسن في هذه الأبيات ، ولقد أساء إلى نفسه .

ثم أمر بالجارية فأدخلت إليه ، فإذا بجارية رعبوبة لا تبقي لناظرها عقلاً من حسنها وكمالها .

فعجب معاوية من حسنها ثم تحول إلى جلسائه وقال : والله إن هذه الجارية لكاملة الخلق ، فلئن كَمُلَت لها النعمة مع حسن الصفة ، لقد كملت النعمة لمالكها ، فاستنطقها ، فإذا هي أفصح نساء العرب .

ثم قال : عليَّ بالأعرابي ، فلما وقف بين يديه ، قال له معاوية : هل لك عنها من سلو ، وأعوضك عنها ثلاث جوار أبكار ، مع كل جارية منهن ألف درهم ، على كل واحدةٍ منهن عشر خِلَعٍ من الخز والديباج والحرير والكتان ، وأجري عليك وعليهن ما يجري على المسلمين ، وأجعل لك ولهن حظاً من الصِلات والنفقات؟ فلما أتم معاوية كلامهُ غشي على الأعرابي وشهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات منها .

فلما أفاق قال له معاوية : ما بالك يا أعرابي ؟

قال : شر بال وأسوأ حال ، أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان!! . . . . ثم أنشأ يقول :

لا تَجْـعَـلَنِّي هـداك الله مـن مـلكٍ
كـالمستجـير من الـرمـضـاءِ بـالنـار
أردد سـعـاد عـلى حَـرَّانَ مـكـتئبٍ
يمسي ويـصـبـح في هـم وتـذكـار

قد شَفَّه قلق ما مثله قلق
وأسعر القلب منه أي إسعار

والله، والله لا أنسى محبتها
حتى أغيبَ في قبري وأحجاري

كيف السلو وقد هام الفؤاد بها؟
فإن فعلت فاني غير كفَّارِ

فاجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ
لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعارِ

ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لو اعطيتني كلما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى ، ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول :

أبى القلب إلا حب ليلى وَبُغِّضَتْ
إليَّ نساءٌ ما لهن ذنوبُ

وما هي إلا أن أراها فُجَاءةً
فأبهت حتى لا أكاد أجيبُ

فلما فرغ من شعره ، قال له معاوية : يا اعرابي؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : إنك مقر عندنا إنك قد طلقتها ، وقد بانت منك ومن مروان ، ولكن نخيرها بيننا .

قال : ذاكَ إليكَ يا أمير المؤمنين .

فتحول معاوية نحوها ، ثم قال لها :

يا سعدى أيُّنا أحب إليك ؟ أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره ، أو مروان في غصبه واعتدائه ، أو هذا الاعرابي في جوعه وأطماره؟ .

فأشارت الجارية نحو ابن عمها الأعرابي ثم أنشأت تقول :

هـذا وإن كـان في جـوع وأطـمـارِ
أعـز عنـدي من أهـلي ومـن جـاري
وصـاحـب التـاج أو مـروان عـامـله
وكـل ذي درهـم مـنهـم وديـنـار

ثم قالت : لست ، والله يا أمير المؤمنين ، لحدثانِ الدهر بخاذلته ، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة ، وأنا أحق من صبر معه على السراء والضراء ، وعلى الشدة والرخاء ، وعلى العافية والبلاء وعلى القسم الذي كتب الله لي معه .

فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم وألحقها في صدقات بيت مال المسلمين .

ومما قاله العرب في وصف النساء وما أعطوهن من أسماء وصفات :

إذا كانت المرأة ضخمة في تعمد وعلى اعتدال فهي « رجلة » .

فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي « مسبحله » .

وإذا كانت طويلة قيل جارية سبطة وعيطبول . فإذا كانت بها مسحة من جمال فهي جميلة ووضيئة .

فإذا أشبه بعضها في الحسن بعضاً فهي « حسانة » وإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي « غانية » وإذا كانت لا تبالي أن تلبس ثوباً حسناً ولا قلادة فاخرة فهي « معطال » .

فإذا كان حسنها ثابتاً كأنما وسمت به فهي وسيمة ،

وإذا قسم لها حظ وافر من الجمال والحسن فهي « قسيمة » .

وقالوا : الصباحة في الوجه الوضاءة في البشرة ، الجمال في الانف ، الحلاوة في العينين ، الملاحة في الفم ، الظرف في اللسان ، الرشاقة في القدّ ، اللباقة في الشمائل ،

وكمال الحسن في الشعر .

والمرأة الرعبوبة : البيضاء .

الزهراء : التي يضرب بياضها الى صفرة كلون القمر والبدر .

والهجان : الحسنة البياض .

والمرأة طفلة ما دامت صغيرة ثم وليدة اذا تحركت ، وكاعب إذا كعب ثديها ، وناهد إذا زاد ، ومعصر إذا أدركت ثم خود إذا توسطت الشباب .

العينان والحاجبان :

الزجاء : الدقيقة الحاجبين حتى كأنهما خطا بقلم .

البلج : أن يكون بينهما فرجة وهو يستحب ويكره القرن وهو اتصالهما .

والدعج : أن تكون العين شديدة السواد واسعة المقلة .

البرج : وضوح السواد والبياض في العين .

النجل : سعة العينين .

الكحل : سواد الجفون من غير كحل .

الحور : إتساع سواد العين .

الأسنان :

الشنب : رقة الأسنان واستواؤها وحسنها.

الرتل : حسن تنضيدها وإتساقها .

التفليج : تباعد ما بينها .

الشتت : تفرقها في غير تباعد في استواء وحسن .

الأشر : تحديد في أطراف الثنايا يدل على الحداثة .

الظَّلم : الماء الذي يجري على الاسنان من البريق .

أوصاف عامة :

إذا كانت المرأة شابة حسنة الخلق فهي « خود » .

وإذا كانت جميلة الوصف حسنة المعرى فهي بهكنة .

فإذا كانت دقيقة المحاسن فهي « مملودة » .

فإذا كانت حسنة القد ، لينة العصب فهي خرعبة .

وإذا كانت لم يركب بعض لحمها بعضاً فهي مبتلة .

فإذا كانت لطيفة البطن فهي خمصانة .

فإذا كانت لطيفة الكشحين فهي هضيم .

وإذا كانت لطيفة الخصر مع امتداد القامة فهي ممشوقة .

فإذا كانت رقيقة الجلد ، ناعمة البشرة فهي بضة .

فإذا عرقت في وجهها نضرة النعيم فهي نظرة.

فإذا كانت ناعمة جميلة فهي عبقرة .

فإذا كانت مثنية للين وتعمد فهي غيداء وغادة .

فإذا كانت طيبة الفم فهي رشوف .

فإذا كانت طيبة ريح اليد فهي أنوف .

فإذا كانت طيبة الخلوة فهي رصوف .

وإذا كانت لعوباً ضحوكاً فهي شموع .

وإذا كانت تامة الشعر فهي فرعاء .

وإذا كانت حيية فهي خفرة وخريدة ،

وإذا كانت منخفضة الصوت فهي رخيمة .

فإذا كانت محبة لزوجها متحببة اليه فهي عروب ،

فإذا كانت نفوراً من الريبة فهي نوار ،

فإذا كانت عفيفة فهي حَصَان .

وإذا كانت عاملة الكفين فهي صَنَاع .

مما قيل شعراً
في وصف النساء

مما قيل شعراً في وصف النساء

قال بعض الأعراب :

لهـا قسمـة من خـوط بـانٍ ومن نقى
ومن رشـأ الغـزلان جيـد ومـذرف[1]
يكـاد كليـل الـطرف يكله خـدّهـا
إذا ما بدت من خـدرها حين تـطرف[2]

وقال آخر :

ومجـدولـة[3]، أمـا مجـال وشـاحهـا[4]
فـغـضّ وامـا ردفـهـا فـكـثـيـب[5]
لهـا القمـر السـاري نـصيبٌ وإنهـا
لـتـطلع أحيـانـا لـه فـيـغـيـب

---

(١) الخرط : الغض الناعم والمذرف : العين .

(٢) يكله والكلة : حفظ الشيء ورعايته .

(٣) أي ممتلئة الجسم ممشوقة

(٤) مجال الوشاح : من العنق الى ما فوق الثدي .

(٥) الكثيب التل والمقصود الكبيرة الارداف في غير ثقل .

وقال أبو نواس :

أحـللت مـن قـلبـي هـواك مـحـلة
مـا حـلّهـا المشـروب والـمـأكـول
بكمـال صـورتـك الـتي فـي مثـلهـا
يـتـحـيـر الـتشـبـيـه والـتـمـثـيـل
فـوق الـقـصـيـرة والـطويلة فـوقـهـا
دون الـسـمـيـن ودونـهـا الـمـهـزول

وقال الأعشى :

غـراء[1] فـرعـاء[2] مصقـول عـوارضهـا
تمشي الهوينـا كما يمشي الوحى[3] الوجل
كـأن مـشيـتهـا مـن بـيـت جـارتـهـا
مـر الـسحـابـة لا ريث[4] ولا عجـل

وقال المرار بن سعد :

صـلبـة الـخـدِّ طـويـلُ جـيـدهـا
سـجمـة الـثـدي ولمـا يـنـكسـر[5]

---

(١) غراء : بيضاء .
(٢) فرعاء : كثيرة الشعر .
(٣) الوحى : المشي السريع .
(٤) الريث : الابطاء .
(٥) سجمة الثدي : مرضعة اي أنها رغم كونها ترضع فما زال ثديها قاسياً .

وقال النابغة الذبياني :

يحـطّطن بـالعيـدان في كـل مقعـدٍ
ويـخبـأْن رمـان الـثَّـديّ الـنـواهـد

وقال مسلم بن الوليد ، صريع الغواني :

فـأقسمت أنسى الـداعيـات إلى الصبى
وقــد فَجَـأْتَهَـا الـعيـن والشـر واقـعُ
فغـطت بـأيـديهـا ثمـار صـدورهـا
كـأيـدي الأسـارى أثقلتهـا الجـوامـع[1]

وذم اعرابي امرأة فقال :

والله مـا بـطنهـا بـوالـد ، ولا شعـرهـا بـوارد ،ولا ثـديهـا بناهـد . ولا فـوهها بـبـارد .

وقال آخر في ذم كبر الثديين :

لـعـمـري لـبيضٌ يـحتـللن بـقـفـزةٍ
لـطائفُ ثـدي الصـدر غيـر السـوالفِ
أحـب إلينـا مـن ضخـام بـطونـهـا
لآبـاطهـا تحت الـثـدي تـعـاطـفِ

وقال قيس بني عامر في الممسوحة الصدر التي لم يبد بصدرها شيء :

وُعُـلِّقت لـيلى وهـي بـكـر خـريـدة
ولم يبـد لـلأتـراب من ثـديهـا حجم

(١) الجوامع : الأغلال وهو ما يسمى اليوم الكلبجة والمقصود كبر الاثداء حتى زاد ثقلها على اليدين .

صغيـرين نـرعى البهم يـا ليت أنني
إلى اليـوم لم نكبـر ولم تكبـر البهـم

وقال نصيب :

ولـولا أن يـقـال صبـا نـصـيـبٌ
لـقـلت بـنـفـسي النُّشْـوُ الصـغـارُ
بـنـفـسي كـلُّ مـهـضـوم حـشـاهـا
إذا ظـلـمـت فـلـيس لـهـا انـتـصـارُ
إذا مـا الـزُّلُّ ضـاعـفن الـحـشـايـا
كـفـاهـا أن يُـلاث بـهـا الإزار

وقال ذو الرمة :

نـظرت الـيـهـا نـظرة وهـي عـاتـق
على حين شبت واستبـان نهـودهـا

وقال أبو الطيب المتنبي :

يضمهـا المسـك ضم المستهـام بهـا
حتى يصيـر على الأعكـان أعـكـانـا

وقال آخر :

غـراء واضـحـة أقـراب خـرعـبـة
طـوع العنـاق فـلا بـكـر ولا نَصَفُ

وقال بشار بن برد في وصف القد المياس :

إذا قـامـت لـسـبـحـتـهـا تـثـنـت
كـأن عـظامـهـا مـن خـيـزران

وقال آخر :

إلا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا لمسوها بالأكف تلين

وقال ذو الرمة أيضاً :

ومختلق للملك أبيضَ قد غمز
أشمٌّ ألجٌّ العين كالقمر البدر

وأنشد أحد الشعراء :

وتبدي على المتن من شعرها
عنا قيد كرم تدلين سودا[1]

آخر

جري السواك على باردٍ
لذيذ من الدر يبدي نضيدا[2]

وما زانها العقد لكنها
تزين بالنحر منها العقودا[3]

كشمس الضحى بين أترابها
موافين يوماً ليشهدن عيدا

فكم من قتيل بتلك العيون
وكم من قتيل تولى عميدا

فإن يكُ عني قسا قلبها
فلم يجعل الله قلبي حديدا

أعيذك بالله أن تُشمتي
بنا واشياً أو تطيعي حسودا

---

(١) كناية عن طول شعرها وسواده .

(٢) المقصود اتساق أسنانها وتقاربها .

(٣) لأن عنقها أجمل من العقد.

مما ذكر
من وفاء النساء

ومما ذكر من وفاء النساء

حكى الأصمعي ، عن رجل من بني ضبة قال :

ضلَّت لي إبل فخرجت في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم ، فلما كنت في بعض أحومها ، إذا جارية غشى بصري إشراق وجهها فقالت : ما بغيتك فإني أراك مولهاً ؟ .

قلت : ابل ضلَّت لي فإني في طلبها .

قالت : فتحب أن أرشدك إلى من هي عنده ؟ .

قلت : نعم .

قالت : الذي اعطاكهن هو الذي أخذهن ، فان شاء ردهن ، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختيار . فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقها فقلت لها : هل لك من بعل ؟ ؟ !

قالت : كان والله فدعي فأجاب الى ما منه خلف، ونعم البعل كان .

قلت لها : فهل لك في بعل لا تذم خلائقه ولا تخشى بوائقه ؟

فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعاً ، فأنشأت تقول :

كنا كغصنين من بانٍ غذاؤهما
ماء الجداول في روضات جناتِ

فاجتث صاحبها من جنب صاحبه
دهر يكرُّ بفرحات وترحاتِ

وكان عاهدني إن خانني زمنٌ
أن لا يضاجع أنثى بعد موتاتِ

وكنت عاهدته أيضا فعاجله
ريب المنون قريباً مذ سنيناتِ

فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه
عن الوفاء له خلبُ التحيات .

وقال الأصمعي : قال لي الرشيد : امض إلى البادية فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم فانحدرت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت أنا وهو الى المقابر ، فما صرت اليها إذا بجارية نادى الينا ريح عطرها قبل الدنو منها ، عليها ثيابٌ مصبغات وحلى ، وهي تبكي أمر بكاء فقلت : يا جارية ما شأنك ؟ فأنشأت تقول :

فإن تسألاني فيم حزني ؟ فإنني
رهينة هذا القبر يا فتيان

أهابك اجلالا وإن كنت في الثرى
مخافة يوم أن يسؤك مكاني

واني لاستحييك والترب بيننا
كما كنتَ استحييك حين تراني

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حياً ويكثر في الدنيا مؤاساتي

أزور قبـرك في حـلي وفـي حـللي

كـأنني لست مـن أهـل المـصيبـات

فـمن رآنـي، رأى عـبـرى مـفـجعـة

مـشهـورة الـزي تـبكـي بيـن أمـواتِ

فقلنا لها : وما الرجل منك ؟ قالت : بعلي وكان يحب أن يـراني في مثل هذا الزي فآليت على نفسي ألا أغشى قبره إلا في مثل هـذا الزي لأنـه كان يحبه أيام حياته وأنكرتماه أنتما علي .

الخاتمة

خاتمـــة

هناك صفات أخرى معنوية عديـدة يمكن للمرأة أن تتحلىّ بهـا لتزيـد من جمال شخصيتها .

من هذه الصفات : الحياء .

إن الحياء يجب ألا يزايل المرأة بعد زواجها وقد قال الـرسول ﷺ في الحياء أحاديث نبوية عديدة منها :

- الحياء من الإيمان .
- الحياء شعبة من الإيمان .
- الحياء لا يأتي إلا بخير .
- الحياء خيرٌ كله .

وقد أفاض الفلاسفة والفقهاء والمسلمون في التحدث عن الحياء :

من هؤلاء الفـلاسفة من جعـل الحيـاء أحـد مـظاهـر فضيلة العفّـة ، كالفيلسوف (احمد مسكويه) .

ومنهم من قـال إن الحياء غـريزة في النفس وقـد يكون الحيـاء تزلُّفاً واكتسـاباً ، أي أن المرأة تسعى إلى جعله جزءاً لا يتجـزأ من أخلاقهـا حتى ولو لم يكن غريزةً فيها . ومن هؤلاء الفقيه (القاضي) والفقيه (عياض) .

* * *

من الأمور التي تذكر إذا ذكر جمال المرأة : الغيرة .

والرجل يغار على امرأته سواء أكانت جميلة أم غير جميلة .

ويروي كتاب السيرة النبوية الشريفة روايات كثيرة وطريفة عن غيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . ولقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في كتابنا الذي ألفناه باسم (عائشة بنت الصديق) وهو أحد كتب سلسلة « عظماء الإسلام » .

ويروي عن الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام أنه قال لبعض أصحابه وكان من بينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « رأيتني بالجنة ، ورأيت قصراً ، فقلت لمن هذا القصر ؟ . قالوا لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله فذكرت غيرتك » .

وقال عمر رضي الله عنه وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! . . أمنك أغار.

والغيرة كما يقولون دخان نار الحب . وانها دليل بقاء تلك النار مشتعلة ، لأنها إذا خمدت وأصبحت رماداً بارداً لا يتصاعد منها دخان .

إلا أن بعض النساء يخلطن بين الغيرة والكرامة ، وهذا أمر يضايق الرجل كثيراً ، لأن الرجل إذا كان يحبّ زوجته حباً صحيحاً فإنه يسعد كثيراً إذا ما وجدها تغار عليه من امراه اخرى ، ولكن الزوجة إذا أدخلت كرامتها في هذا الأمر امتزجت ثورتها بالغضب الذي يكون غالباً جارحاً لكرامة الزوج؛ وبالتالي تأتي غيرتها بعكس النتائج المرجوة منها .

ومن الأخطاء التي تفسد بهاء المرأة غيرتها من المظاهر : فإن بعض النساء يشعرن بالغيرة من ملابس غيرهن أو ما يتحلين به من مصوغات .

ومثل هذه الغيرة تسبب الكثير من المشاكل والمآزق للأزواج

وتنتهي دائماً إلى إيجاد أزمات مالية خانقة لا تلبث أن تؤثر على كيان الأسرة والأبناء .

ومن ذلك أيضاً الغيرة من أثاث المنزل أو من السيارات الجديدة وما شابهها .

* * *

إن الزوجين السعيدين يجب أن تتوافر بينهما الثقة العظيمة .

لا مانع من أن تظهر المرأة بين آونة وأخرى غيرتها على زوجها ، ولكن بشكل لطيف لا يصل بأي حال من الأحوال الى حد اتهامه بالخيانة الزوجية .

والزوجة العاقلة ، إذا فرض وأنها لاحظت اهتمام زوجها بامرأة أخرى ، عليها أن تعالج الأمر في حكمة ولباقة ، كأن تبحث مثلاً عن الأسباب التي دفعت بزوجها إلى الاهتمام بتلك المرأة ، وتحاول قدر طاقتها تلافي هذه الأسباب .

أما الزوج فإذا أحس بالغيرة على زوجته فيتحتّم عليه أن يلفت نظرها في شيء من الكياسة إلى التصرف الذي لم يعجبه منها ، إذ أنه مما يهبط بمنزلة الزوج ومكانته أن يتهم عواطف زوجته نحوه بالخيانة أو حتى شبه الخيانة .

من كل ذلك نفهم أن العبرة في جمال المرأة الذي ينشده الرجل هو مقدرتها على تهيئة جو جميل من السعادة في حياتها معه . وأن يكون الزواج بينهما مودة ورحمة متبادلة ، وتنافساً بين كلٍّ منهما للتضحية في سبيل هناء الآخر.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول : تعريف الجمال	٩
الفصل الثاني : الجمال والقرآن الكريم	١٩
الفصل الثالث : الجمال والطاعة	٣٣
الفصل الرابع : الجمال والصبر	٥٣
الفصل الخامس : المرأة المسلمة وحركات تحرر المرأة	٧١
الفصل السادس : أوصاف النساء وأخبارهن	٨٥
مما قيل شعراً في وصف النساء	٩٩
مما ذكر من وفاء النساء	١٠٧
الخاتمة	١١٣

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

مَنَح اللهُ تعالى الإنسانَ القدرةَ على الإحساس بالجمالِ واستيعابِهِ والاستمتاعِ به .

والدينُ الإسلاميُّ الحنيفُ الذي ينظرُ إلى الجمالِ عامَّةً وجمالِ المرأةِ خاصةً يعطي الصورة الصادقة عمَّا يجبُ أن يكون عليه هذا الجمال .

وإذا كان مِنَ الصَّعبِ أن نُقيمَ قواعد أساسية للجمالِ وأن نضعَ شروطاً معينةً لتحديد ماهيةِ جمالِ المرأةِ ، فإنَّ هذه الدراسةَ عن جمالِ المرأةِ في الإسلامِ تعتمدُ على بحثِ ما ورد في القرآنِ الكريم ، والأحاديث النَّبوية الشَّريفةِ وأقوالِ بعض الحكماء العربِ وفقهائهم ، لتعريفِ الجمالِ وبحثِهِ من جوانبِهِ العديدةِ مقروناً بالطَّاعةِ والصَّبرِ ووعي المرأةِ ووفائها .

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان